

مَجَلَّةُ الْجَمْعِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ لِلْغَلَاةِ الْعَرَبِيَّةِ



﴿ مجلّة عامية دورية محكمة نصف سنوية ﴾

- ◆ ما استظهره الأبدئي من كلام سيبويه - دراسةٌ وصفيةٌ تحليلية
د. ماجد بن مقبل الخضيري
- ◆ ناصب المستثنى بـ(إلا) عند سيبويه
د. موسى بن ناصر الموسى
- ◆ بلاغة التَّمْنِي بـ(ليت) ومقاماتها في القرآن الكريم
د. محمد بن أحمد الخضير
- ◆ رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد) للجاحظ - دراسة تداولية حجاجية
د. هند بنت داود الشقير
- ◆ أثر استعارة (الابن سلاح) في استرسال المعنى الشعري القديم في الرثاء: مقارنة
أجناسية إدراكية
د. محمد بن مشبب الشهراني
- ◆ الموت والحياة في رواية (المزهاف) - دراسة سيميائية
د. بسمة بنت محسن العتيبي
- ◆ المعجم الرقمي التعليمي للناطقين بغير العربية: المعايير العلمية والفنية
د. خالد بن محمد اليوبي
- ◆ الاندماج الاجتماعي واكتساب العربية لغة ثانية: دراسة وصفية لقناعات
المتعلمين وممارساتهم
د. رياض بن صالح الذيب

مجلة الجمعية العلمية السعودية للغات العربية

العدد الثامن والثلاثون
ذو الحجة ١٤٤٧ هـ - يونيو ٢٠٢٦ م

◆ هيئة تحرير المجلة ◆

المشرف العام على المجلة، رئيس مجلس إدارة الجمعية

د. بدر بن محمد الراشد

رئيس التحرير

أ. د. عبد المجيد بن صالح الجار الله

مدير التحرير

د. سليمان بن صالح الزميع

أعضاء هيئة التحرير

أ. د. إبراهيم بن عبد العزيز أبو حيمد

أ. د. أماني بنت عبد العزيز الداود

أ. د. صالح بن عبد العزيز المحمود

أ. د. عبد الرحمن بن رجا الله السلمي

أ. د. عبد العزيز بن صالح العمري

أ. د. فريد بن عبد العزيز الزامل

العدد الثامن والثلاثون

ذو الحجة ١٤٤٧ هـ / يونيو ٢٠٢٦ م

النشر الورقي: رقم الإيداع: ١٤٢٩ / ٣٣٠٢ بتاريخ ١٤٢٩ / ٦ / ٧ هـ

الرقم الدولي المعياري (ردمد): ٤١٥٥ - ١٦٥٨

النشر الإلكتروني: رقم الإيداع: ١٩٣٨ / ١٤٤٧ بتاريخ ١٤٤٧ / ٢ / ٣ هـ

الرقم الدولي المعياري (ردمد): ٤٤٠٦ - ٢٩٦١

◆ طبيعة المجلة وضوابط النشر ◆

◆ طبيعة المجلة:

١. مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية.
٢. مجلة علمية محكمة.
٣. تعنى بعلوم اللغة العربية وآدابها.
٤. تنشر البحوث والدراسات العلمية المحكمة.
٥. دورية نصف سنوية، تصدر في منتصف السنة الهجرية ونهايتها.

◆ ضوابط النشر:

أولاً: الضوابط العامة:

١. أن يكون البحث في علوم اللغة العربية وآدابها.
٢. أن يتسم بالجدة والأصالة.
٣. أن يلتزم البحث بالسلامة اللغوية، والدقة في التوثيق والتخريج.
٤. ألا يكون البحث منشوراً أو مقدماً للنشر في مجلة أخرى.
٥. ألا يكون مستلاً من عمل علمي سابق للباحث.
٦. لا يحق للباحث سحب البحث بعد إحالته إلى المحكمين.
٧. يلتزم الباحث بتعديل ملحوظات المحكمين بعد إجازته.
٨. كل بحث نُشر في المجلة يعبر عن رأي صاحبه العلمي والفكري، دون أدنى مسؤولية على المجلة.

ثانياً: ما يشترط في كتابة البحث وتوثيقه:

١. أن يكتب البحث على ورق من مقاس (A4).
٢. أن يكتب بخط (Traditional Arabic) بحجم (١٧) للمتن، وبحجم (١٤) للحاشية، وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرداً).
٣. أن تكتب الهوامش أسفل كل صفحة على حدة.
٤. أن يُدِيل البحث بثبت المصادر والمراجع.
٥. أن يكتب الباحث ملخصاً لبحثه باللغتين العربية والإنجليزية لا تزيد كلماته على مائتي كلمة، ويتضمن الملخص موضوع البحث وأهدافه، ومنهجه، وأهم التوصيات، والكلمات المفتاحية.
٦. رومنة المصادر والمراجع.

ثالثاً: ما يشترط عند تقديم البحث:

١. يقدم الباحث طلباً بنشره، وإقراراً يتضمن امتلاكه لحقوق الملكية الفكرية للبحث كله، والتزاماً بعدم نشر بحثه المقدم إلا بعد موافقة هيئة التحرير.
٢. يقدم الباحث نسختين من بحثه على النحو التالي:
 - نسخة من البحث خالية من اسم الباحث كاملة بصيغة (WORD).
 - نسخة من البحث خالية من اسم الباحث كاملة بصيغة (PDF)
٣. يرفق الباحث ترجمة الملخص باللغة الإنجليزية.
٤. يرسل الباحث بحثه مع الملخصات إلى منصة مجلة الجمعية:



المحتويات

- ◆ ما استظهره الأبدني من كلام سيبويه - دراسةً وصفيةً تحليلية ٩
د. ماجد بن مقبل بن محمد الخضيري
- ◆ ناصب المستثنى بـ (إلا) عند سيبويه ٧٥
د. موسى بن ناصر الموسى
- ◆ بلاغة التَّمَنِّي بـ (ليت) ومقاماتها في القرآن الكريم ١١٩
د. محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الخضير
- ◆ رسالة (فصل ما بين العداوة والحسد) للجاحظ - دراسة تداولية حجاجية ٢٢١
د. هند بنت داود بن سليمان الشقير
- ◆ أثر استعارة (الابن سلاح) في استرسال المعنى الشعري القديم في الرثاء؛
مقاربة أجناسية إدراكية ٢٥٧
د. محمد بن مشيب بن محمد الشهراني
- ◆ الموت والحياة في رواية (المزهاف) - دراسة سيميائية ٣١٩
د. بسمة بنت محيسن بن عواض العتيبي
- ◆ المعجم الرقمي التعليمي للناطقين بغير العربية: المعايير العلمية والفنية ٣٧٥
د. خالد بن محمد حسين اليوبي
- ◆ الاندماج الاجتماعي واكتساب العربية لغة ثانية: دراسة وصفية لقناعات
المتعلمين وممارساتهم ٤١٥
د. رياض بن صالح الذيب

أثر استعارة (الابن سلاح) في استرسال المعنى الشعري
القديم في الرثاء
مقاربة أجناسية إدراكية

**The Impact of the Metaphor “The Son is a
Weapon” on the Continuity of Poetic Meaning
in Classical Elegy
A Cognitive-Genre-Based Approach**

إعداد:

د. محمد بن مشبب بن محمد الشهراني

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية اللغة العربية - قسم الأدب والبلاغة والنقد

Dr. Mohammed ibn Mushabbab ibn Mohammed Alshahrani

Imam Mohammad Ibn Saud Islamic University (IMSIU)

Department of Literature, Rhetoric, and Criticism

ملخص البحث

يُعنى هذا البحث بدراسة تأثير الاستعارة المفهومية في إنجاز المعاني الشعرية، وذلك بتوجيه النظر إلى استعارة (الابن سلاح) من جهة استرسال معاني الرثاء في الشعر القديم عنها، وجرى تخصيص هذه الاستعارة بالعناية والاهتمام للوقوف على مسألتين اثنتين تهمان الدراسة الأدبية، الأولى تهتم بتطور المعنى الشعري القديم عن طريق امتزاج هذه الاستعارة بأنظمة تصويرية تدعم حضورها في الخطاب الأدبي، والثانية تهتم بمسألة الأجناس الأدبية؛ فمن المقرر أن شعرنا العربي غنائي وأن شعر الرثاء عامل بارز في رفع مستوى الغنائية فيه، وعند إرجاع هذه الغنائية إلى المعرفة التجريبية عن طريق استعارة (الابن سلاح) نجد الجواب في عدم تطور المعنى الشعري المُسترسَل عنها عند العرب من الغنائية ليصل إلى مستوى الشعر الملحمي، بل إنَّ من الملاحظ أن النظام التصوري مع هذه الاستعارة أتاح تطور البعد الغنائي في معاني الرثاء والتعزية في فني الشعر والكتابة، وذلك عن طريق رثاء المرأة والتعزية بها، وخلصت الدراسة إلى أهمية المعرفة التجريبية المجسدة في دراسة الخطاب الأدبي على مستوى تجنيسه ودلالته.

الكلمات المفتاحية: المعاني الشعرية، شعر الرثاء، الأجناس الأدبية، المعرفة

التجريبية

Abstract

This study explores the impact of conceptual metaphor on the generation of poetic meaning, focusing specifically on the metaphor “the son is a weapon” and its role in shaping the continuity of elegiac meanings in classical Arabic poetry. The research centers on two critical issues in literary studies. The first is the evolution of poetic meaning through the integration of this metaphor with conceptual frameworks that reinforce its presence in literary discourse. The second addresses literary genre classification, particularly in the context of Arabic poetry, which is conventionally categorized as lyrical. Elegy, in this regard, has played a key role in enhancing the lyrical dimension of Arabic poetry. When this lyrical nature is examined through the lens of embodied experiential knowledge—represented by the metaphor “the son is a weapon”—it becomes evident that elegy in Arabic tradition did not develop into an epic form. Rather, the conceptual system surrounding this metaphor fostered a deepening of lyrical expression, particularly in the context of mourning and consolation, including poetic tributes to women. The study concludes by emphasizing the importance of embodied experiential knowledge in analyzing literary discourse, especially in terms of its generic identity and semantic significance.

Keywords: poetic meaning, elegy, literary genres, embodied experiential knowledge

المقدمة

الرثاء من أغراض الشعر المألوفة عند الشعراء قديماً وحديثاً، وعندما يُذكر تقسيم الأدب إلى عناصر أربعة تصف حدوثه المادي، وهي: اللفظ، والمعنى، والعاطفة، والخيال؛ فإنَّ الغالب الإتيان بشعر الرثاء شاهداً على عنصر العاطفة والاستدلال على صدقها، غير أنَّ إرجاع هذا الغرض إلى عوامل ذهنية تسبق حدوث فاجعة الموت التي هي محور الحديث عن التجربة الشعورية الدالة على صدق العاطفة، هو من المسائل التي تستوجب عناية الدراسات الأدبية والنقدية بها، وانطلاقاً من هذه الغاية تأتي هذه الدراسة التي تبحث في معاني الرثاء الشعرية من جهة استرسالها عن استعارة (الابن سلاح) وما يمتزج معها من الأنظمة التصويرية الداعمة لها.

تعتمد الدراسة على المنهج الإدراكي بوصفه منهجاً يُعنى بالعمليات الذهنية التي تسبق إنجاز العبارة المنطوقة، وتُعد المعرفة التجريبية أساسية في هذا المنهج انطلاقاً من مركزية الجسد في التصور والاسترسال، ولأنَّ استعارة (الابن سلاح) استعارة مفهومية يحصل بها تعقلٌ مفهومي الأخلاق والرفاهية في البيئة الإدراكية القديمة عند العرب، وهو تعقلٌ انعكس على منتوجهم الأدبي ولاسيما شعر الرثاء؛ فإنَّ أهمية الاستعانة بهذا المنهج تظهر في أهداف الدراسة الآتية:

١. الوقوف على أثر استعارة (الابن سلاح) في استرسال معاني الرثاء الشعرية عنها.

٢. محاولة تقديم تفسير لسؤال عام تفرضه استعارة (الابن سلاح) على هذا البحث؛ وهو لماذا قلَّ في شعرنا القديم رثاء المرأة موازنة مع ما قيل في رثاء الرجل؟ مع الأخذ في عين الاعتبار أنَّ المرأة أكثر نظماً لشعر الرثاء حتى في الرجال؛ فما أكثر رثاءها للرجال! وما أقلَّ رثاء الرجال لها!

٣. دراسة أثر استعارة (الابن سلاح) في تجنيس الخطاب الشعري عند العرب، وذلك من خلال تحديد مستوى الغنائية فيه وفق عملية الاسترسال عن هذه الاستعارة وما يمتزج معها من الأنظمة التصورية.

ومن خلال البحث والاستقصاء فإنني لم أعثر على دراسة سابقة عُنيت بدراسة استعارة (الابن سلاح) وأثرها في استرسال المعنى الشعري في الرثاء وتجنيسه، وقد استوجب ذلك تقسيم البحث إلى المطالب الآتية حرصاً على تحقيق الأهداف المذكورة سابقاً، وهذه المطالب:

المطلب الأول: المقصود من الاستعارة المفهومية وما ينتج عنها.

المطلب الثاني: الدلالة الموضوعية لسلالة الذكور في أعراف العرب وتقاليدهم الجاهلية.

المطلب الثالث: المدخل إلى المعرفة التجريبية لاستعارة (الابن سلاح).

المطلب الرابع: الروافد التجريبية لاستعارة (الابن سلاح).

المطلب الخامس: دلالة المعرفة التجريبية على المادة اللغوية (ب ن و).

المطلب السادس: أثر استعارة المحاسبة الأخلاقية في تكوين استعارة (الابن سلاح).

المطلب السابع: منهجية دراسة المعنى الشعري في الرثاء وتجنيسه عن طريق استعارة (الابن سلاح).

المطلب الثامن: البعد الغنائي لاستعارة (الابن سلاح) في رثاء الرجل.

المطلب التاسع: البعد الغنائي لاستعارة (الابن سلاح) في رثاء المرأة.

المطلب العاشر: تطور المعنى الأدبي للرثاء ضمن منظومة الأجناس الأدبية.

ويُختتم البحث بخاتمة، فُتبت المصادر والمراجع.

المطلب الأول

المقصود من الاستعارة المفهومية وما ينتج عنها

تُعد الاستعارة المفهومية (Conceptual Metaphor) نظرية بارزة في علم الدلالة بشكل عام وفي العلوم الإدراكية على وجه التحديد^(١)؛ فهي معنية بطريقة الإدراك البشري وأثر التجربة فيه، وخلصتها أننا ندرك بطريقة استعارية مجالاً من خلال مجال آخر، ويُسمى المجال الذي ندركه المجال الهدف، ويُسمى المجال الذي تتم عملية الإدراك به المجال المصدر، وما يكون من هذا التناسب يُسمى الإسقاط الاستعاري، ويُستدل على هذه العملية بمثال مشهور مألوف وهو استعارة (الجدال حرب)^(٢)؛ فنحن نعقلُ الجدال من مجال الحرب، وينعكس هذا التعقل في سلوكنا اللغوي العام وفي طبيعة حياتنا اليومية؛ فمن السلوك اللغوي التعبير عن الجدال بألفاظ الحرب، كقولنا: فلان يهاجم خصمه بالحجج الدامغة، وخسر فلان في مناظرته مع فلان، ولم ينتصر زيد في جداله مع عمر، ولقد دافع زيد عن موقفه في المحكمة أمام خصومه.

وتدل طبيعة أجسادنا على أثر التجربة في هذا الإدراك؛ من خلال الحالة النفسية والذهنية التي تراققنا في مواقف الجدال؛ بدءاً من تغير لون البشرة واحمرار العينين بحسب طبيعته وموقفنا منه^(٣)، وانتهاء بالآثر المنعكس سلباً على

(١) وهي إلى جانب ذلك من المباحث المهمة في توسيع مجال الدراسة الدلالية لتتجاوز حدود الجملة إلى الخطاب ودراسة ما هو عفوي أو شعري منه. انظر: د. الأزهر الزناد، النص والخطاب. (ط١)، صفاقس: دار محمد علي للنشر، ٢٠١١م)، ص ١٧.

(٢) وهو المثال الذي ابتدأ به رائدا هذه النظرية كتابهما للتعريف بمكانة الاستعارة في ذهن. انظر: جورج لاكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها. ترجمة: عبد المجيد جحفة، (ط٢)، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٩م)، ص ٢١-٢٣.

(٣) كأن يصاحب الغضب هذا الجدال فتظهر آثاره على الجسد، وبذلك يستقيم الإسقاط الاستعاري بين مجالي المصدر والهدف.

صحتنا بسببه، فضلاً عن المحاولات التي نبذلها لتهدئة النقاش بين المتحدثين وسعيها إلى الإصلاح بينهم، ومن ذلك ما يكون من تعكر المزاج وتغير السلوك إلى ما هو سيء عندما نطلب إلى جهة قضائية، وكل ذلك يقوم في أذهاننا بطريقة استعارية مصدرها مجال الحرب بالنسبة إلى مجال الجدل، وبناء على ذلك فإنَّ السؤال المشروع عن هذه العملية المفهومية يتلخص في الدعامة العلمية لها، وعن النتائج المترتبة عنها.

يُحدد كلُّ من جورج لاكوف ومارك جونسون (George Lakoff and Mark Johnson) المعرفة التجريبية أساساً لقيام هذه العملية المفهومية في الذهن، وهي معرفة تدحض المعرفة الموضوعية التي كانت مسؤولة عن غياب الأثر الإدراكي العميق للاستعارة^(١)، وأدى قصور الوعي بأثر الاستعارة -في مجال اللغة - إلى إهمال المَلَكَة الدلالية لصالح النزعة الشكلية، وعلى سبيل المثال فإنَّ الانتقال من مركزية التركيب في النحو الكوني إلى مركزية الدلالة كان عن طريق إثارة عدد من المسائل العلمية ومنها الاستعارة المفهومية، بل إنَّ من الباحثين من يعدُّ النماذج اللسانية ذات تأثير في بناء هذه الاستعارة وتطورها^(٢)، وخلاصة ما تقدم هو أنَّ للاستعارة المفهومية بعدين: أولهما متصل بمركزية الدلالة في المنجز اللساني، وأنَّ هذه المركزية موقعها الذهن، والثاني تفسير حدوث هذه المركزية في الذهن من خلال الانتقال من المعرفة الموضوعية إلى المعرفة التجريبية^(٣).

ولأنَّ استعارة (الابن سلاح) بحاجة إلى دراستها تجريبياً كغيرها من النماذج الاستعارية المألوفة في قائمة الاستعارات المفهومية؛ فإنني سأكون بحاجة إلى

(١) انظر: جورج لاكوف ومارك جونسون، الفلسفة في الجسد. ترجمة: عبد المجيد جحفة، (ط١، بيروت: دار الكتاب الجديد، ٢٠١٦م)، ص ٢٧-٤٢.

(٢) وذلك في دراسة لسانية منشورة. انظر: عادل غرار، دور النماذج اللسانية في بناء وتطوير نظرية الاستعارة التصويرية. مجلة مقاربات ع ٥٢، (٢٠٢٣م): ص ١٠٥-١١٦.

(٣) انظر في ذلك: د. الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنية، ص ١٨٣-١٩٦. وانظر مقدمة مترجم كتاب الاستعارات التي نحيا بها، وما أورده عن طبيعة المعرفة في الطرح الموضوعي والتجربي، ص ٩-١١.

دراسة الدلالة الموضوعية لسلالة الذكور في تقاليد العرب وأعرافهم الجاهلية، وذلك قبل دراسة المعرفة التجريبية التي سوَّغت قيام النظام الاستعاري (الابن سلاح) في الذهن، وهو ما سيتيح - حسب تقدير الباحث - وضع المسألة في سياق الدراسة الأدبية من جهتين اثنتين؛ من جهة المعاني الشعرية ولاسيما في شعر الرثاء، ومن جهة أثر هذه الاستعارة في تجنيس الخطاب الأدبي وتحديداً في فني الشعر والكتابة.

المطلب الثاني

الدلالة الموضوعية لسلالة الذكور في أعراف العرب وتقاليدهم الجاهلية

إن تفضيل العرب في جاهليتهم لسلالة الذكور على الإناث إلى حد ادعائهم نسبة البنين إلى أنفسهم، ونسبة البنات إلى الله تعالى، هو مما نصَّ عليه القرآن الكريم في أكثر من موضع إنكاراً عليهم وتأثيماً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(١)، وقوله: ﴿أَفَأَصْفَكَ رِجْسُكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾^(٢)، وقوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾^(٣) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾، ومن هذه الآيات يُعلم وجه الإنكار والتأثيم، وهو ما استقرَّ في أعراف العرب قديماً من تصور للكمال والأفضلية بالنسبة إلى النسل؛ فقد ترتب على هذا التصور عدم تنزيه الله سبحانه وتعالى عن الولد أيَّ كان هذا الولد، ثم إنَّهم مع عدم التنزيه اختاروا لأنفسهم الأفضل وتركوا لله سبحانه الأقل لأنَّهم لا يرضونه لأنفسهم^(٤).

(١) سورة النحل، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الصافات، الآيات: ١٤٩، ١٥٢.

(٤) قال الطبري في جامع البيان: "القول في تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رِجْسُكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ يقول تعالى ذكره للذين قالوا من مشركي العرب الملائكة بنات الله: ﴿أَفَأَصْفَكَ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿رِجْسُكُمْ بِالْبَنِينَ﴾، يقول: أفخصكم ربكم بالذكور من الأولاد، ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم، بل تدوهن وتقتلوهن، فجعلتم لله ما لا ترضونه لأنفسكم، ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾، يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين الذين قالوا من الفرية على الله ما ذكرنا: إنكم أيها الناس لتقولون بقبيلكم: الملائكة بنات الله، قولا عظيما، وتفترون على الله فرية منكم". أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن. تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، (ط١)، القاهرة: دار هجر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ١٤: ٦٠٢.

ثم إنهم نسبوا إلى الملائكة - وهم عباد مكرمون - الضعف والهوان بأن جعلوهم إناثاً؛ إذ كان ضعف الأنثى سبب رغبتهم عنها ورغبتهم في الذكر طلباً للأفضل من السلالة بمقتضى أعرافهم الجاهلية، وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) **أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ** (١٦) **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ** (١٧) **أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْغَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** (١٨) **وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثاً أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ** (١٩)، وبناء على هذه التقاليد العرفية المستندة على معرفة موضوعية تتقرر العملية التصنيفية بالنسبة إلى النسل.

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١٥، ١٩.

المطلب الثالث

المدخل إلى المعرفة التجريبية لاستعارة (الابن سلاح)

سيكون المدخل إلى دراسة المعرفة التجريبية لاستعارة (الابن سلاح) هو مدخل الأخلاق من حيث ارتباطها بالجسد؛ ويرجع هذا الاختيار إلى أسباب علمية عامة وأخرى خاصة بالدراسة الأدبية، وهي:

١. ذم القرآن الكريم السلوك الأخلاقي الناتج عن التقاليد والأعراف المتصلة بهذا النظام التصوري على نحو ما تقدم بيانه.
٢. لأن للأخلاق في الطرح الفلسفي رؤية موضوعية تتجاهل المعرفة التجريبية، في حين أن الدراسة العلمية لهذه التجربة أتاحت الكشف عن عدد من الأنظمة الاستعارية والخطاطات التصورية المنتزعة من الجسد^(١).
٣. صلة الأخلاق بالمعاني الشعرية في الرثاء؛ ففي البيان والتبيين: "كانت بنو أمية لا تقبل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثي، قيل: ولم ذلك؟ قيل: لأنها تدل على مكارم الأخلاق"^(٢).
٤. تصنيف أبي العباس المبرد التعازي والمراثي في باب الخطب والمواعظ، وذلك من جهة أن على الإنسان الصبر على النوائب، وأن الناس يتفاضلون في ذلك بصحة الفكر، ولذا عدَّ هذا الباب جامعاً^(٣)، ثم إنه في كتاب له

(١) انظر: جورج لاكوف ومارك جونسون، "الفلسفة في الجسد"، ص ٣٩١.

(٢) أبو عثمان الجاحظ، "البيان والتبيين". تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ط، بيروت: دار الجيل، د.ت)، ٣: ٢٢٠.

(٣) قال أبو العباس المبرد: "قد ذكرنا في صدر كتابنا أننا نذكر فيه خطباً ومواعظ، فمما نذكره من ذلك أمر التعازي والمراثي؛ فإنه باب جامع... وحق الإنسان الصبر على النوائب، واستشعار ما صدرناه؛ إذ كانت الدنيا دار فراق ودار بوار، لا دار استواء... وإنما يتفاضل الناس بصحة الفكر، وحسن العزاء، والرغبة في الآخرة، وجميل الذكر". أبو العباس المبرد، الكامل. تحقيق: د. محمد الدالي، (ط٢)، =

آخر قد عَوَّل على خلق الصبر في امتداحه ووصف العرب به في جاهليتهم قبل إسلامهم، وما كان من فضيلته عندهم عند حدوث الموت؛ فكان الصبر موضع مروءتهم وزينة أحلامهم في جاهليتهم وإسلامهم، مستدلًا على رأيه في الصبر عند العرب بما رُوي من أخبارهم وأشعارهم في الرثاء^(١)، ولعل إشارته إلى تفاضل الناس في حسن العزاء بصحة الفكر، قد سوَّغَتْ له ربط مجتمع العرب في الجاهلية بمجتمعهم في الإسلام اعتمادًا على مبدأ صحة الفكر في المجتمعين.

وتبعًا لما جاء في السببين الثالث والرابع؛ فإنَّ عقد الصلة بين المراثي والأخلاق له دلالة تصويرية مرتكزة في الذهن، وهي ما أتاحت لأبي العباس المبرد تصنيف المراثي في باب الحكم والمواعظ، فضلًا عن وصف العرب في جاهليتهم بخلق الصبر على نحو ما هو عليه هذا الخلق في زمن الإسلام، وسنلاحظ أنَّ دقة هذا التصور وصدوره عن اللاوعي المعرفي أتاح عدم تفريق أبي العباس المبرد بين طبيعتي الصبر في الجاهلية وفي الإسلام، وخلافًا لذلك تحاول المعرفة التجريبية تقديم المسألة بطريقة أخرى.

يقرر كل من لاكوف وجونسون أنَّ الأخلاق مرتبطة في نظامنا التصوري بالرفاهية البشرية؛ فجميع المُثل الأخلاقية مصدرها هذا التصور^(٢)، وهو ما يعني أنَّ مراعاة الإنسان حالته الصحية بأنَّ يكون جسده قويًا سليمًا، وذهنه مستقيمًا مترنًا، هو أمر ضروري في حياته لا يمكنه الاستغناء عنه؛ لأنَّه بالمحافظة على صحته سيكون فردًا يصلح للمعيشة الاجتماعية؛ فيُشارك المجتمع ويشاركه المجتمع، وهذا التصور

= بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ٣: ١٢٧٦.

(١) فهو يقول: "كانت العرب في الجاهلية وهم لا يرجون ثوابًا ولا يخشون عقابًا يتحاضون على الصبر، ويعرفون فضله، ويُعيرون بالجزع أهله إثارةً للحزم، وتزيينًا بالحلم، وطلبًا للمروءة". أبو العباس المبرد، التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا. تحقيق: إبراهيم محمد الجمل، (د.ط، القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت)، ص ٤٢.

(٢) انظر: جورج لاكوف ومارك جونسون، الفلسفة في الجسد، ص ٣٩١-٣٩٣.

هو نفسه الذي نسقته على الأخلاق؛ فالأخلاق الحميدة تُوصف هي ومن يتحلّى بها بالصحة والقوّة.

وفي المقابل فإنّ الأخلاق المذمومة تُوصف بالداء والمرض ويكون صاحبها مريضاً أخلاقياً^(١)؛ ولذا يشيع في الناس قولهم: الداء الخُلقي، أو: الكذب داء خُلقي، والرشوة مرض، ونحو ذلك، وبناء على ذلك يستقيم تصور الأخلاق بطريقة استعارية على نحو (الأخلاق صحة)، ويجري التعامل مع الأخلاق وفق هذا التصور الاستعاري؛ فمن ذلك أنّ الأخلاق المذمومة مصدر الفساد، وعليه فإنّ مؤسسات المجتمع مسؤولة عن مكافحة هذا الفساد وإحلال النزاهة محله، على نحو الطريقة التي تُكافح فيها المؤسسات الصحية الأمراض لإحلال الصحة محلها، ومن ذلك أنّ الأخلاق عدوى تُصيب المستقيمين عندما يخاطون ذوي المرض الأخلاقي، كما أنّ الداء عدوى تُصيب الأصحاء عند مخالطة المرضى، وهذا تصور نجده في نشاطنا اللغوي، ومنه قول أبي العلاء المعري:

ولا تجلس إلى أهل الدنيا فإنّ خلائق السفهاء تُعدي^(٢)

ونتيجة لهذا التصور الاستعاري - حسب تقدير الباحث - تتكون في أذهاننا العلاقة بين استعارة (الابن سلاح) وأنظمة التصور الاستعارية الأخرى للأخلاق وفق المأثور عن عادات العرب وتقاليدهم؛ فتبرز خطاطة الرفاهية التي تستدعي المحافظة عليها حضور استعارة المحاسبة الأخلاقية، وهذه الأخيرة تمد استعارة (الابن سلاح) بالقيم والاستباعات التصورية المؤثرة فيها، فتحضر نتيجة ذلك استعارة القوة الأخلاقية التي تتضمن المحافظة على وضع أخلاقي مستقيم متزّن؛ إذ كانت هذه الاستعارة مُبَيِّنَةً استعارياً من خلال مبدأ الاستقامة في الفيزياء، ويترتب على هذا المبدأ تنشيط خطاطة التوازن؛ فالرفاهية المادية في الجسد

(١) انظر: جورج لاكوف ومارك جونسون، الفلسفة في الجسد، ص ٣٩٢.

(٢) أبو العلاء المعري، اللزوميات. تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي، (د.ط، القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت)، ص ٢٧٩.

نفسه تستلزم المحافظة على جميع العلامات الحيوية فيه، وعندما يحدث اختلال في توازنها فإنَّ ذلك يعني مشكلات صحية تُفقد الجسم قوته وحيويته وتكون سبباً في ضعف الإحساس بالرفاهية أو انعدامها تماماً.

وإذا انتقلنا إلى ما هو على مستوى الظاهرة الأدبية وتحديدًا فيما يتصل بالمعنى الشعري في الرثاء، وحاولنا الإفادة من كل ما تقدّم في كشف أبعاد استرسال المعنى الشعري عن هذه المعرفة التجريبية المخزونة في الذهن؛ فإنَّ الموت عامل جوهري في انعدام الإحساس بخطاطة الرفاهية عند طرف ما، ثمَّ إنَّه في الوقت نفسه عامل جوهري في رفع مستوى الشعور الجيد بهذه الخطاطة عند طرف آخر، والذي يضبط هذه المسألة ويؤكدُها الناتجُ التصوري للأخلاق من جهة ارتباطها بالرفاهية، ومن جهة انعكاس ذلك على استعارة المحاسبة الأخلاقية، وذلك بالنظر في هذين الاعتبارين لواقعة الموت استنتاجًا مما أورده ابن سلام في طبقاته عندما عرض طبقة شعراء المراثي^(١):

١. عندما يكون سببُ التأثير القتل؛ فإنَّ استعارة (الابن سلاح) مسؤولة عن إبراز الإحساس بسلب خطاطة الرفاهية عند من أصابه هذا الإيذاء، كالشعور بانعدام هذه الخطاطة عند المهلهل بن ربيعة عندما قتل جساس بن مرة أخاه كليباً، وعلى نحو الإحساس بفقدائها عند ثلاثة من شعراء طبقة المراثي عند ابن سلام، وهم متمم بن نويرة، والخنساء، وأعشى باهلة. ولكن قد تكون الاستعارة نفسها مسؤولة عن إبراز اكتمال الشعور بخطاطة الرفاهية عند مَنْ تسبب بهذا القتل -أي عند الطرف الآخر- كاكتمال الإحساس بها عند عمرو بن كلثوم عندما قتل عمرو بن هند وكانت منها معانيه الشعرية في الفخر الذي أتى في معلقته المشهورة^(٢).

(١) انظر: محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء. قرأه: محمود محمد شاكر، (د.ط، جدة: دار المدني، د.ت)، ١: ٢٠٢. وسيأتي بيان ذلك في موضعه.

(٢) انظر خبر ذلك عند ابن قتيبة وما أورده من شعر جاء في معلقته: ابن قتيبة، الشعر والشعراء. تحقيق: أحمد محمد شاكر، (د.ط، القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م)، ١: ٢٢٨، ٢٢٩.

٢. تُعد استعارة (الابن سلاح) عاملاً مهماً في إبراز المحافظة على خطاطة الرفاهية من خلال إظهار الجَلَد والحَزَم؛ إذ كان في إظهار التجلد ما يمنع الطرف الآخر من الإحساس بضعف اكتمال خطاطة الرفاهية عند من أصابته واقعة الموت، وذلك وفق مقتضى استعارتي المحاسبة الأخلاقية والقوة الأخلاقية، كقول أبي ذؤيب:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعع^(١)

وقول عمرو بن معدي كرب:

كم من أخ لي حازم بوأته بيدي لحدا
أعرضت عن تذكره وخلقت يوم خلقت جلدا^(٢)

ومع هذين الاعتبارين يُسترسَل المعنى الشعري في الرثاء عن استعارة (الابن سلاح)، ولكي نتبين وجه هذا الاسترسال فإنَّ من الضروري كشف المعرفة التجريبية لاستعارة (الابن سلاح) عند العرب لبيان عمق ارتباط هذا الانتظام التصوري لها مع الأخلاق على المستوى الإنساني، وأثره في خطاطة الرفاهية إيجاباً أو سلباً.

(١) المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، (ط٦)، القاهرة:

دار المعارف، د.ت)، ص ٤٢٢.

(٢) أبو العباس المبرد، الكامل، ٣: ١٣٧٧.

المطلب الرابع

الروافد التجريبية لاستعارة (الابن سلاح)

إنَّ من أبرز الشواهد الدالة على أثر التجربة المتصلة بالجسد في قيام استعارة (الابن سلاح) في النظام الإدراكي، أنَّ العرب جعلوا صلة الرجل بقومه كصلة العضو بباقي الجسد، ومن ذلك الفصيلة؛ فالفصيلة النسب الأدنى والعشيرة الأقرب كما في قوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾^(١) قال في اللسان: "الفصيلة القطعة من أعضاء الجسد، وهي دون القبيلة، وفصيلة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنون، وقيل أقرب آبائه إليه ... وأصل الفصيلة قطعة من لحم الفخذ"^(٢).

وجاء في نهاية الأرب ما يدل على ربط مسميات الأنساب بمسميات منتزعة من الجسد؛ فكان منها أنَّ تسمية قبائل العرب مأخوذة من قبائل الرأس، ومن ذلك البطن والفخذ، بل إنَّ إلحاق البطون والأفخاذ بالقبيلة إنما هو من جهة إلحاق هذه الأعضاء ببنية الإنسان؛ "فكأنهم رتبوا ذلك على بنية الإنسان"^(٣)، ويُنَى على هذه الصلة امتزاج استعارة (الابن سلاح) مع استعارة (العشيرة عاتلة)؛ أي إنَّ الابن من أبناء القبيلة في منزلة العضو من الجسد الذي تقع عليه مسؤولية الإحساس به والدفاع عنه، ويكون التقصير في هذا الواجب سبباً في فقدان القيمة التصورية من هذا الامتزاج المنتزع من الجسد^(٤)، وهي قيمة تحددها خطاطة الرفاهية؛

(١) سورة المعارج، الآية رقم ١٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، (ط٣، ١ بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، ١١: ٥٢٢.

(٣) أبو العباس القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب. تحقيق: إبراهيم الأبياري، (ط٣، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، ص ١٤.

(٤) وفي السيرة النبوية أنَّ النبي ﷺ قال عندما علم بأشرف قريش الذين خرجوا دفاعاً عن قافلته يوم بدر، وكان منهم أبو جهل، وأمّية بن خلف، وسهيل بن عمرو، وغيرهم: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها". عبد الرحمن السهيلي، الروض الأنف. تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، (ط١، القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م)، ٥: ٩٤.

فعلى الابن مسؤولية حماية عشيرته طلباً لاستمرار الرفاهية في حقها؛ إذ سيكون الضعف سبباً لطمس خطاطة الرفاهية في حقهم وانتقالها إلى غيرهم وفق المنطق التصوري للأخلاق، ثم إنَّ العشيرة نفسها تجد آثار الضعف والانكسار عندما تفقد مصدر قوتها بموت الرجل ذي الصفات السيادية المتكاملة، كما هو الحال عندما يفقد الجسد عضواً من أعضائه بتر أو شلل، وهذه القيمة التصورية هي التي تظهر في المعنى الشعري القديم للرتاء، على نحو قول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلدة الأسدي:

أبا دُلَيْجَة من يكفي العشيرة إذْ أمسوا من الأمر في لبسٍ وبَلْبَالٍ
أم من لأهل لويٍّ في مُسَكَّةٍ في أمرهم خالطوا حقاً بإبطالٍ
أم من لعادية تُردى مُلْمَلَمَةً كأنَّها عارضٌ من هضب أو عالٍ^(١)

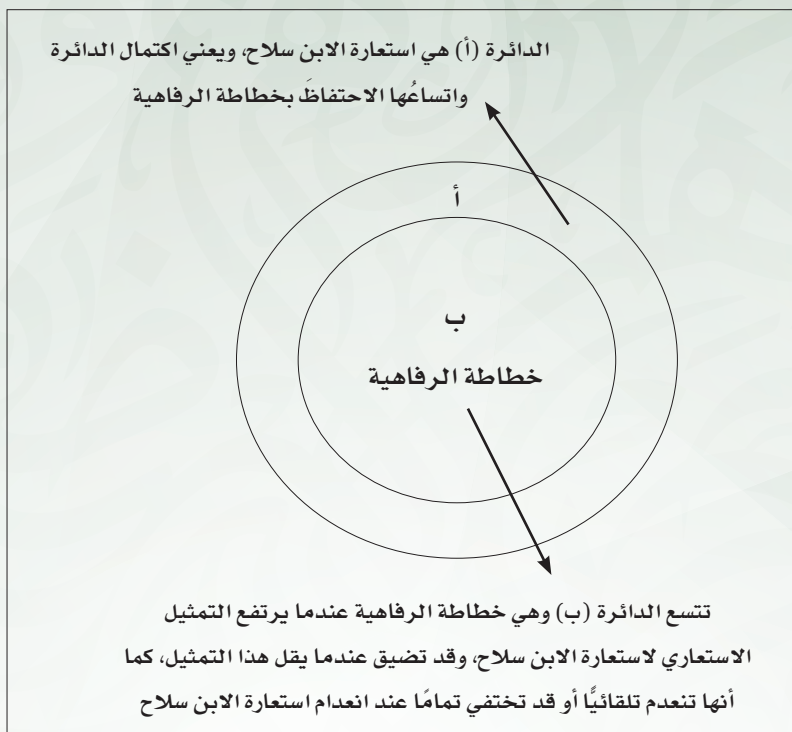
وقول أبي تمام يرثي محمد بن حميد الطائي:

كأنَّ بني نِهَانٍ يوم وفاته نجومُ سماءٍ خرَّ من بينها البدرُ^(٢)

ويلخص الشكل الآتي (رقم ١) خلاصة هذه القيم التصورية لاستعارة (الابن سلاح) وأثرها في خطاطة الرفاهية في النظام الإدراكي عند العرب استناداً على ما تقدم بيانه هنا وفي الفقرة السابقة، وفيه نجد أنَّ الدائرة الواسعة (أ) تحيل إلى استعارة (الابن سلاح)، والدائرة المُضمَّنة فيها وهي (ب) تحيل إلى خطاطة الرفاهية:

(١) أوس بن حجر، ديوان شعري، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، (د.ط، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص ١٠٤.

(٢) أبو تمام، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي. تحقيق: محمد عبده عزام، (ط٢، القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ٨١: ٤.



الشكل (رقم ١)

المطلب الخامس

دلالة المعرفة التجريبية على المادة اللغوية (ب ن و)

قد يُشرع التساؤل عن سبب اختيار لفظة (ابن) في تحديد هذه الاستعارة وكشف روافدها التجريبية؛ فما الذي يمنع من أن تكون (الرجل سلاح) أو (المذكر سلاح)؟ وبعبارة أخرى: هل اختيار لفظة (ابن) هو اختيار مقصود في ذاته عند دراسة المعرفة التجريبية لاستعارة (الابن سلاح)؟

إنَّ المادة اللغوية (ب ن و) تدعم القيمة التصورية لخطاطة الرفاهية؛ لأنَّ لفظتي (الرجل) و(المذكر) تُطلقان على السادة والعبيد، وهو ما يعني حصر دلالات القوة والرفاهية في لفظة الابن ^(١)؛ إذ تستعين استعارة (الابن سلاح) بخطاطتي الربط والوعاء في تكوين معالهما الاستدلالية في التصور؛ أما خطاطة الربط فهي لربط الابن بأبيه في السيادة والشرف على امتداد الزمن، كما في قول عمرو بن كلثوم:

وتحملنا غداة الروع جُردُ عُرْفُنَا لَنَا نَقَائِذَ وَافْتُلِينَا
ورثناهنَّ عن آباءِ صَدِقٍ ونُورُثُهَا إِذَا مِتْنَا بَنِينَا ^(٢)

وأما استعانتها بخطاطة الوعاء فمن جهة أنَّ الابن المكتمل الشرف والسيادة والقيادة امتاز بأنَّه حظي بأُمِّ حرة كريمة كان رحمها وعاءاً استثنائياً له؛ ولذا يُمدح الرجل الماجد الكريم بأنَّ النساء عقمن أن يلدن مثله ^(٣).

(١) كما سيأتي بيانه في الفقرة الآتية.

(٢) أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات. تحقيق عبد السلام هارون، (ط٥، القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ص ٤١٧.

(٣) كقول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما بلغته فتوح العراق بقيادة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ”عجز النساء أن يلدن مثل خالد“. ابن الأثير، الكامل في التاريخ. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، ٢: ٢٣٨.

إنَّ المادة اللغوية (ب ن و) مادة تتضمن في كلام العرب معنى الشرف؛ ففي اللسان: ”بني: بنا في الشرف يبنو؛ وعلى هذا تُؤوَّل قول الحطيئة:

أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنا

قال ابن سيدة: قالوا إنه جمع بُنُوَّة أو بُنُوَّة، قال الأصمعي: أنشدتُ أعرابياً هذا البيت أحسنوا البنا، فقال: أي بُنا أحسنوا البنا، أراد بالأول، أي بُني^(١)، وعليه فإنَّ مَنْ روى البيت كما أنشده الأصمعي أي (أحسنوا البنا) بكسر الباء فقد أراد البناء، وتكون المادة اللغوية (ب ن ي)، ومن وافق الأعرابي فقد أراد الابن؛ فتكون المادة اللغوية (ب ن و) حسب كلام ابن سيدة المذكور، مع ملاحظة الخلاف في تأصيل لام ابن؛ فثمة من قضى بأنَّ المادة اللغوية هي (ب ن ي) لكثرتها في كلامهم^(٢)، والقيمة العلمية من هذه الملحوظة أنَّ كلا المادتين لا تؤثران في دلالتها على خطاطة الرفاهية استدلالاً بما قاله الحطيئة.

يُضاف إلى ذلك أنَّ كلمة (بنت) ليست على بناء مذكرها (ابن) فتكون التاء فيها للتأنيث وذلك لسكون ما قبلها، ويُستفاد من هذه الإشارة أنَّ التاء مُلحقة بها وهي مبدلة من الواو^(٣)، وهو ما يعني استقلال كلمة (بنت) عن (ابن) فلا تكون لفظة تلحقها تاء التأنيث كما هو الحال مع (ابنة)، وعليه فإنَّ للمادة اللغوية (ب ن و) ثراءً لغوياً تصويرياً لا يخلو من أهمية في البحث العلمي؛ فكلا اللفظتين (الابن) و (البنت) ترتبطان بالمادة اللغوية المتصلة بمعنى الشرف، وكلاهما استرسال عن خطاطة الرفاهية^(٤)، وهو ما يتيح قيام نظام تصويري استعاري من مجال

(١) ابن منظور، لسان العرب، ١٤: ٨٩.

(٢) انظر: السابق، ١٤: ٨٩، ٩٠. ورأى آخرون خلاف ذلك وأنها (ب ن و).

(٣) انظر: السابق، ١٤: ٨٩.

(٤) ولذلك أثره في المعنى الشعري بشكل عام؛ فمن الملاحظ أنَّ استعارة (البنت سلاح) تسمح بقيام نظام تصويري مغاير لاستعارة (الابن سلاح)، وفيه تكون خطاطة الرفاهية مسؤولة عن التحكم في مجال القوة والسلاح، وبمقتضى هذه الاستعارة تأتي ألقاب مشهورة لبعض الشعراء كصريع الغواني، ولهذه الملحوظة أهمية علمية في دراسة خطاطتي الحياة والموت في تكوين المعاني الأدبية في غير الرثاء.

(السلّاح) بالنسبة إلى مجال (البنت)؛ غير أنّ استعارة (الابن سلّاح) ستُفني قيام نظام تصوّري استعاري وهو (البنت سلّاح) يتناسب مع واقعة الموت في المعنى الشعري القديم وفق الاعتبارين السابق ذكرهما في الفقرة السابقة، ويُسوِّغ هذا الإلغاء تضمن استعارة (الابن سلّاح) خطاطة الرفاهية مع استعارة المحاسبة الأخلاقية استناداً على ما هو مأثور عن العرب في عاداتهم وتقاليدهم، ويتجلى هذا التضمن من خلال عدة مظاهر أعرضها في الفقرة الآتية.

المطلب السادس

أثر استعارة المحاسبة الأخلاقية في تكوين استعارة (الابن سلاح)

تدل أعراف العرب وتقاليدهم على أنَّ تحقق استعارة المحاسبة الأخلاقية يكون عن طريق الناتج التصوري عنها في استعارة (الابن سلاح)، ومن أبرز الدلالات العُرفية على هذه العلاقة ثلاثة أمور هي: تسمية الابن بمكروه الأسماء مما يعني نسبته إلى لوازم الحرب، ونسبة الفضل في تحقيق استعارة المحاسبة الأخلاقية إلى الابن، وأثر استعارة المحاسبة الأخلاقية في نسبة الضعف ولوازمه إلى البنت، وتحت كل معنى من هذه المعاني ترد الشواهد عليه من أشعارهم وكلامهم على نحو ما يلي^(١):

أ- تسمية الابن بالمكروه من الأسماء:

يُرجع القلقشندي سبب تسمية العرب أبناءهم بما هو مكروه من خلال ملاحظة عاداتهم وتقاليدهم؛ فهم يختارون المحبوب من الأسماء لعبيدهم خلافاً لأبنائهم؛ فيقول: "الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء ككلب وحنظلة وضرار وحرب، وما أشبه ذلك، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء كفلاح، ونجاح، ونحوهما، والمعنى في ذلك ما يُحكى أنه قيل لأبي الدقيش الكلابي: لِمَ تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح؟ فقال: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا. يريد أن الأبناء معدة للأعداء فاختاروا لهم شر الأسماء، والعبيد معدة لأنفسهم فاختاروا لهم خير الأسماء"^(٢).

(١) سأكتفي بذكر شواهد تتناسب مع الغرض من إنجاز هذه الدراسة؛ إذ إنَّ في تفصي أبعاد هذه المسألة ما يفتح المجال إلى دراسة واسعة تتجاوز حدودها.

(٢) أبو العباس القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ٢٢.

يُنْبِئُ عَلَى هَذَا التفسير أمران اثنان؛ ألهما أَنَّ اختيار الاسم المكروه ناتج عن استعارة المحاسبة الأخلاقية؛ فيمقتضى هذه الاستعارة يكون على الابن مسؤولية سلب لوازم الرفاهية من الآخر؛ كَأَنَّ يُحْدِثَ فِي عَدُوِّهِ مَا أَحْدَثَهُ فِيهِ أَوْ مَا كَانَ سَيَحْدُثُهُ إِنْ أَوْقَعَ بِهِ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَغَيْرِهِمَا؛ فَتَنْتَقِلُ الرِّفَاهِيَّةُ مِنَ الْعَدُوِّ إِلَيْهِ وَإِلَى قَوْمِهِ، وَيُضْمَنُ مَنْطِقُ الْمَحَاسِبَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ هَذَا الْإِنْتِقَالَ؛ فَهُوَ إِمَّا لِدَفْعِ ظَلَمٍ وَقَعَ أَوْ قَدْ يَقَعُ، وَإِمَّا لَجَلْبِ مَنْفَعَةٍ يَكُونُ التَّقْصِيرُ فِي حِفْظِهَا مَسْوُغًا فِي سَلْبِهَا حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ أَعْرَافُهُمْ^(١).

وفي المثل المشهور: "أَعَزُّ مِنْ كَلِيبٍ وَائِلٌ"^(٢)، نَلْحِظُ أَنَّ الْعِلْمَ كُلِّيًّا مَأْخُوذٌ مِنَ الْمَادَّةِ اللَّغَوِيَّةِ (ك ل ب) الَّتِي هِيَ مِنْ مَكْرُوهِ الْأَسْمَاءِ، وَهِيَ مَادَّةٌ تَجْتَمِعُ فِيهَا الْأَنْظُمَةُ التَّصَوُّرِيَّةُ السَّابِقُ ذَكَرَهَا: اسْتِعَارَةُ (الابن سلاح)، وَخَطَايَةُ الرِّفَاهِيَّةِ، وَاسْتِعَارَةُ الْقُوَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَاسْتِعَارَةُ الْمَحَاسِبَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْكَلْبَ دَاءٌ يُصَابُ بِهِ الرَّجُلُ إِذَا عَضَهُ الْكَلْبُ الْعُقُورُ، وَدَوَاؤُهُ بِإِجْمَاعِ الْعَرَبِ قَطْرَةٌ مِنْ دَمِ الرَّجُلِ الشَّرِيفِ تُخْلَطُ بِمَاءٍ يَشْرِبُهُ الْمَصَابُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْكَمِيتِ مَادِحًا:

أَحْلَامُكُمْ لِسِقَامِ الْجَهْلِ شَافِيَةٌ كَمَا دَمَاؤُكُمْ يُشْفَى بِهَا الْكَلْبُ^(٣)

وَالْخِلَاصَةُ أَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ الْمَعْرُوفَ - إِذَا كَانَ مَسْعُورًا - مِثَالُ ذَهْنِي جَيِّدٍ لِإِقْقَاعِ الْأَذَى فِي الْعَدُوِّ مَعَ عَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنَ الْمَحَاسِبَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ؛ وَلِذَا كَانَ فِي التَّسْمِيَةِ بِهِ دَالًّا عَلَى الْمَشْهَدِ التَّصَوُّرِيِّ الْجَيِّدِ لاسْتِعَارَةِ (الابن سلاح)؛ لِأَنَّ مَقْتَضَى الْأَنْظُمَةِ التَّصَوُّرِيَّةِ السَّابِقَةِ وَتَحْدِيدًا اسْتِعَارَةَ الْمَحَاسِبَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ هُوَ إِبْرَازُ مَقْدَرَةٍ عَالِيَةٍ فِي إِقْقَاعِ الْأَذَى فِي الْآخِرِ مَعَ عَدَمِ مَقْدَرَةٍ هَذَا الْآخِرِ فِي الْإِنْتِقَامِ وَرَدِ الْأَذَى بِمِثْلِهِ أَوْ أَشَدَّ مِنْهُ، بَلْ إِنَّ الدَّوَاءَ لَا يَكُونُ مِنْ جِهَةِ إِيْذَاءِ الْمُعْتَدِي بَلْ يَكُونُ مِنْ جِهَةِ وَجُوبِ الْمِيلِ إِلَى

(١) وعلى هذا قال زهير في معلقته:

وَمَنْ لَا يَدُّ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ

(٢) أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د. ط.)، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م، مطبعة السنة المحمدية، ٢: ٤٢.

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب، ١: ٧٢٣.

التسامح؛ فالمُصاب يستعيد صفته البشرية من مصدر آخر لا يتحقق منه الانتقام. والثاني أن أسماء القبائل نفسها التي ينتسب إليها أبنائها تكون في الغالب دالة على مقتضى قانون استعارة المحاسبة الأخلاقية وما يتصل بلوازم الحرب؛ مثل الانتساب إلى كلب^(١)، وأسد، وقضاعة^(٢)، وثعلبة^(٣)، وقريش، ولو أخذنا قبيلة قريش مثلاً توضيحاً؛ فإنَّ المادة اللغوية (ق ر ش) تدل على الافتراس وإيقاع الأذى في الآخر؛ فالقرش دابة تكون في البحر لا تدع دابة إلا أكلتها ومنه سُميت قريش^(٤)، وبذلك تتحقق استعارة (الابن سلاح) وخطاطة الرفاهية على نحو ما يدل عليه الشكل السابق.

ب- نسبة الفضل في تحقيق استعارة المحاسبة الأخلاقية إلى الابن؛

إذا عدنا إلى المثل المشهور: "أعزُّ من كُليب وائل"، وأعدنا النظر في مسألة تلازم التسمية بمكروه الأسماء، وجدنا أنَّ خلاصة النظر تدل على مشهد تصويري تُعقد من خلاله الصلة بين (الابن) وأثره في اتساع حجم خطاطة الرفاهية عليه وعلى قومه إلى المستوى الذي تغيب معه المشاهد التصويرية المضادة من غيره، ويبين الجاحظ هذه القيمة التصويرية بقوله: "وقال صاحب الكلب: ومما اشتق من اسم الكلب في موضع النباهة كُليب بن ربيعة، وهو كُليب وائل ... قالوا: وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم تُوقد ناراً، ولم تُحوض حوضاً، وكان يحمي الكلاً، ولا يُتكلم عنده إلا خفصاً، ويجير الصيد، ويقول: صيد أرض كذا وكذا في جوارى لا يُباح، وكان له

(١) انظر ما أورده الجاحظ من أسماء العرب التي اشتقوها من اسم الكلب: أبو عثمان الجاحظ، الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ١: ٣١٢-٣١٧.

(٢) قال في اللسان: "القُضْع: القهر... وقُضاعة: اسم كلب الماء... القُضاعة: اسم كلب الماء، وقُضاعة: أبو قبيلة، سمي بذلك لانقضاعه مع أمه، وقيل: هو من القهر". ابن منظور، لسان العرب، ٨: ٢٧٦.

(٣) قال في اللسان: "ثعلبة اسم غلب على القبيلة... والثعالب قبائل من العرب شتى: ثعلبة في بني أسد، وثعلبة في بني تميم، وثعلبة في طيء، وثعلبة في بني ربيعة". وتحمل كلمة الثعلب معنى يدل على السلاح؛ ففي اللسان: "طرف الرمح الداخل في جبة السَّنان". السابق، ١: ٢٣٧، ٢٣٨.

(٤) انظر: السابق، ٦: ٣٣٥.

جرو كلب قد كَتَّعَه، فربما قذف به في الروضة تعجبه فيحُمِيها إلى منتهى عوائه، ويلقيه بحريم الحوض فلا يَرده بعير حتى تصدر إبله^(١)“.

إنَّ اتساع خطاطة الرفاهية إلى هذا المستوى بالنسبة إلى كليب وائل معناه التفوق في معايير استعارة المحاسبة الأخلاقية، ويقتضي ذلك حصر المشهد التصوري في (الابن) من جهات عدة، منها أن يُذكر في قائمة أنساب بعض العشائر من كان اسمه (مَنَعَة)؛ فعند الكلبي أنَّ من ولد سبيع بن أوس مَنَعَة، وقد ولد مَنَعَة ظَفَرًا ومازناً^(٢)، ومن ذلك أن يكون تظافر أبناء القبيلة واجتماعها مدعاة إلى تحقيق أعلى مستوى ممكن من الرفاهية إلى حد امتناع المحاسبة الأخلاقية في حقهم؛ فمَجَّع لقب أطلقته قريش على قصي بن كلاب لأنه قد جمع قومه على المنعة والعزة فضلاً عن أنَّ من معاني (ق ر ش) الضم والاجتماع والتظافر^(٣)، وهذا التصور شائع في الأنساب مع ملاحظة أنَّ فيه ما يدل على اقتران التصور فيه بالجسد أو بخطاطة الرفاهية، ومن الجسد نجد أنَّ البراجم من بني حنظلة عددهم خمسة وهم: عمرو، والظليم، وقيس، وكلفة، وغالب، وقد سُمُّوا بذلك عندما استجابوا لرجل منهم قال لهم: ”أَيُّهَا القبائل التي ذهب عددها، تعالوا فلنَجْتَمع، فنكن كبراجم كفي هذه؛ ففعلوا فسمُّوا البراجم^(٤)“.

ومما يتصل بخطاطة الرفاهية الدلالة على أنَّ من يجاور القوم المجتمعين من ذوي العدد فإنَّه سينعم بالمنعة؛ فلا يناله الأذى من أحد وفق ما تقتضيه استعارة المحاسبة الأخلاقية عندهم؛ فقد كان لامرأة من شيبان اسمها هند سبعة أولاد إليها ينتسبون، وقد جاورهم أعشى بني عوف بن همام فأحمد جوارهم؛ فقال مادحاً لهم:

(١) الجاحظ، الحيوان، ١: ٣٢٠. وتوضيح الخط من الباحث.

(٢) انظر: الكلبي، جمهرة النسب. تحقيق: د. ناجي حسن، (ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨١م، بيروت: عالم الكتب)، ص ٦٠٣.

(٣) انظر: ابن منظور، ”لسان العرب“، ٦: ٣٣٥.

(٤) الكلبي، جمهرة النسب، ص ١٩٤.

عليك بني هند فكن في جوارهم فإنك إن جاورتهم لن تندما
هم يمنعون الجار من كل سوء وتصبح فيهم آمن السرب محرما
فلم أر جيرانا إذا الحرب شمرت كمثل بني هند أعف وأكرما
إذا كنت فيهم لم تنلك ظلامه ولا غدره حتى تؤوب مسلما^(١)

ثمة إشكال علمي سببه أثر نسبة الأبناء إلى أمهم دون أبيهم على وجه المفاخرة بوصفهم بالعزة والمنعة التي تمتد إلى من ينعم بجوارهم من جهة استحقاقه خطاطة الرفاهية؛ فيقال هل يعني ذلك التعارض مع لوازم استعارة (الابن سلاح) عند انتساب بعض العشائر إلى الأم التي هي مرتبطة في النظام التصوري بالبنت وهي موضع الضعف؟ والشروع في تناول هذا الإشكال يلزم منه الانتقال إلى دراسة الدلالة الثالثة.

ج- أثر استعارة المحاسبة الأخلاقية في نسبة الضعف ولوازمه إلى البنت؛

من أمثال العرب المشهورة التي هي في إزاء قولهم: "أعز من كليب وائل"، قولهم: "إنه لأمنع من أم قرفة^(٢)"، ويظهر الإشكال في هذا التوازي بالنسبة إلى استعارة (الابن سلاح)؛ فكليب وأم قرفة يُضرب بهما المثل في العزة والامتناع؛ فإذا كانت استعارة (الابن سلاح) منسجمة في التصور مع كليب ربيعة فإن انسجامها مع أم قرفة هو موضع الإشكال، ويؤكد هذا الإشكال ما ذهب إليه عدد من كبار المفسرين إلى أن المرأة هي المراد من قوله تعالى: ﴿أَوْمَنُ يَشْؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(٣)، ومما يدل على نسبة الضعف إلى البنت ما روي عن أعرابي أنه قال

(١) انظر الأبيات ومناسبتها: أبو القاسم الأمدي، المؤلف والمختلف. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، (د.ط، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية)، ص ١١.

(٢) أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال، ٢: ٤٥.

(٣) سورة الزخرف، الآية رقم ١٨. وهذا القول نسبته الطبري إلى ابن عباس رضي الله عنه، ونقل عن قتادة أنه قال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾: "قلما تتكلم امرأة فتريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها". الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢٠: ٥٦٣، ٥٦٤.

وقد بُشِّرَ بابنةٍ وُلِدَتْ لَهُ: ”وَاللَّهِ مَا هِيَ بِنِعَمِ الْوَلَدِ، نَصْرُهَا بَكَاءٌ، وَبِرُّهَا سَرَقَةٌ“^(١)،
ويترتب على هذا إعادة النظر في طبيعة استعارة (الابن سلاح) من جهة طبيعة
نسبة أسباب العزة والمنعة في الذاكرة التصويرية عند العرب.

إنَّ المدخل إلى تناول هذا الإشكال يكون بمراعاة العمل المنظَّم لاستعارة
المحاسبة الأخلاقية وخطاطة الرفاهية مع استعارة (الابن سلاح)، وملاحظة أنَّ
إسناد العزة والامتناع إلى المرأة ناتج عن انسجام هذا الانتظام في التصور؛ ذلك
لأنَّ امتناع المرأة ذات الشأن إلى الحد الذي يُضرب به المثل مرتبط بتمكنها هي
نفسها من خطاطة الرفاهية بدعم من استعارة (الابن سلاح) على نحو ما دل عليه
الشكل السابق، أي إنها تتعم بخطاطة الرفاهية بفضل كامل من استعارة (الابن
سلاح)، ويدل شرح المثل نفسه على هذه القيمة التصويرية؛ فأُمُّ قُرْفَةٍ هذه هي امرأة
مالك بن حذيفة بن بدر، وكان يُعلّق في بيتها خمسون سيفاً لرجال كلهم مَحْرَمٌ لها^(٢)،
وهو ما يعني أنَّ القيمة التصويرية للمحاسبة الأخلاقية من خلال ضرب المثل بها
تُثبت العكس مما قد يبدو في ظاهر العبارة المنطوقة للمثل؛ فما يتصل بالمحافظة
على خطاطة الرفاهية في حقِّ أُمِّ قُرْفَةٍ، وامتناع إيقاع المحاسبة الأخلاقية عليها
مصدره الرجل عملاً بالمقتضى التصوري لاستعارة (الابن سلاح)، ويتأكد هذا
بوضوح في نسج معانيهم الشعرية عن هذه العملية التصويرية المنتظمة في الذهن؛
فعمرو بن كلثوم يقول:

وَنُوجِدُ نَحْنُ أَمْنَعُهُمْ ذِمَارًا وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَقَدُوا يَمِينًا^(٣)

قيل في شرحه: ”الذُّمَار: حريم الرجل وما يجب عليه أن يحميه“^(٤)، وقوله:

(١) ابن الشجري، أمالي ابن الشجري. تحقيق د. محمود محمد الطناحي، (ط١)، القاهرة: مكتبة

الخانجي، ١٤٢٣هـ/١٩٩٢م)، ٢: ٤٠٥. وهو شاهد مشهور عند اللغويين والنحاة.

(٢) انظر: الميداني، مجمع الأمثال، ٢: ٤٥.

(٣) أبو بكر الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص ٤٠٨.

(٤) المصدر السابق: ص ٤٠٨.

على آثارنا بيض حسان نَحَازِرُ أَنْ تُقَسِّمَ أَوْ تَهُونَا^(١)

قيل في شرحه: "معناه لقيناكم ومن ورائنا النساء، وكذلك كان أهل الجاهلية يفعلون إذا حاربوا ... أي محاذرين نحن تقسيمهن^(٢)"، ومعنى هذا أَنَّ التباهي بامتناع المرأة مع بقاء نسبة الضعف ولوازمه إليها هو إثبات لاستعارة (الابن سلاح) من جهة أثر استعارة المحاسبة الأخلاقية في تنظيم عملية التصور.

ومن جهة أخرى فإنَّ نسبة الأبناء من ذوي الشرف العالي إلى الأم هو إبراز تصوري متصل باستعارة (الابن سلاح)؛ إذ تكون المرأة في هذا التصور -بوصفها الأم لهم جميعاً- العنصر التصوري المشترك الذي يُسَوِّغُ استحقاقهم هذه الاستعارة إلى مستوى الكمال فيها؛ فهي إِمَّا مُنْجِبة حسنة الإنجاب، وإِمَّا مُحَمِّقة سيئة الإنجاب، وهذا التصور -مع بداهته- مهم في هذه الدراسة؛ فهو ناتج عن الامتزاج التصوري لخطاطة الوعاء مع استعارة (الابن سلاح)، ومن خلال هذا الامتزاج تكون المرأة وعاءً يُنْسَبُ إليه الابن أو الأبناء المعدودين في الشرف، ولذا يُثْنَى على فاطمة بنت الخرشب لأنها أم الكَمَلَة بما تقتضيه استعارة (الابن سلاح) في قول قيس بن زهير العبسي:

بنو جِنِيَّةٍ وَلِدْتُ سِيوفاً قَوَاطِعَ كُلِّهَا ذَكَرُ صَنِيعٍ^(٣)

وتجدر العناية بهذا الامتزاج والتنبؤ به؛ فمنه يأتي تسويغ رثاء شعراء العرب زوجاتهم على نحو ما نجده في شعر جرير فيما سيأتي، ثم لا بد من مراعاة أثر المحاسبة الأخلاقية في نسبة الضعف ولوازمه إلى الأنثى بشكل عام؛ فهي بهذا الضعف مصدر زيادة الرفاهية عند الخصوم؛ فمن كان له حظ السبي على الآخر فإنَّ له حظ اكتمال هذه الخطاطة في حقه، وبمقتضى خطاطة الوعاء فإنَّ

(١) أبو بكر الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ص ٤٢١.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٢١.

(٣) المرزوقي، "شرح ديوان الحماسة"، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، (ط١، بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ / ١٩٩١م)، ١: ٤٧٠.

المرأة تزيد من الحجم التصوري لخطاظة الرفاهية إذا كانت مُنجبة وقد وقعت في السبي^(١)، وتؤدي هذه الأنظمة التصورية مجتمعة أي استعارة (الابن سلاح)، واستعارة المحاسبة الأخلاقية، وخطاظة الوعاء، إلى اعتبار المرأة عنصراً مركزياً في خطاظة الرفاهية.

(١) في السيرة النبوية أن عيينة بن حصن أبي مغادرة مواقع القتال في الطائف عندما أمر النبي ﷺ بالارتحال عنها وترك حصار الطائف، بل إنه أثنى على مشركي الطائف، فقليل له: "أتمدح المشركين بالامتناع عن رسول الله ﷺ وقد جئت تنصر رسول الله ﷺ؟ فقال: إني والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم! ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتطهها لعلها تلد لي رجلاً؛ فإن ثقيفاً قومٌ مناكير". عبد الرحمن السهيلي، الروض الأنف، ٧: ٢٣٧، ٢٣٨. وتوضيح الخط من الباحث.

المطلب السابع

منهجية دراسة المعنى الشعري في الرثاء وتجنيسه عن طريق استعارة (الابن سلاح)

إنَّ في ارتباط استعارة (الابن سلاح) بالمجال التصوري للأخلاق ووقوع خطاطة الرفاهية ضمن هذه الاستعارة وما يمتزج معها من أنظمة تصويرية قيمة علمية تظهر في مسألتَي المعاني الشعرية وقضايا تجنيس الخطاب الشعري عند العرب؛ فمن خلال الوعي بطبيعة هذا التصور الاستعاري في الذاكرة التصويرية عند العرب نلاحظ ما يلي:

أ. غياب المعاني الملحمية فيما قالوه من الشعر استرسالاً عن هذه الاستعارة؛ فقد كان في اكتفاء الذاكرة التصويرية عند العرب على حدود الإدراك البشري لمجالي المصدر والهدف ما جعلهما متناسبين مع تصورهم للأخلاق وخطاطة الرفاهية؛ ذلك أنَّ القوة التصويرية مع هذه الاستعارة تسمح بأن يتجاوز الخيال البشري الحدود المألوفة له مما يأذن بتوليد الشعر الملحمي، غير أنَّ المعرفة التجريبية للأخلاق عند العرب لم تسمح بذلك؛ فاستعارة (الابن سلاح) عندهم تعني بعبارة موجزة الرجل في صفته الإنسانية المألوفة؛ فمجال المصدر (سلاح) يمد المجال الهدف (الابن) بما يتناسب مع طبيعة الإنسان غير الخارق للعادة؛ لأنَّ الأخلاق عندهم تنظم مع هذه الاستعارة وفق سلوك إنساني مدعوم من استعارتي القوة الأخلاقية والمحاسبة الأخلاقية في حدود الطبيعة البشرية، ولذا كان استرسال المعنى الشعري أساسه الواجب الأخلاقي الذي يُحتمُّ استرساله، ومن أبرز دلالاته القرابة القريبة من جهة الدم التي تكون بين الشاعر والفقيد؛ كما رثى متمم بن نويرة أخاه مالكا، وكما رثى الخنساء أخوها

صخرًا ومعاوية، وكذلك رثى أعشى باهلة أخاه لأمه المنتشر، بل إنَّ الواجب الأخلاقي يتجاوز الشاعر إلى المتلقي؛ فمن أعلام العرب من كان يتسلى في مصيبة موت قريب له بما قيل في رثاء من كان في درجة قريبه الذي فقده، كالخليفة المنصور لما مات ابنه الأكبر جعفر طلب من يُشده مريثة أبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه^(١)، ولو تجاوز العرب في معرفتهم التجريبية الأخلاق في المستوى الإنساني لها، لكان من الممكن أن نجد عندهم معاني الشعر الملحمي الذي يتجاوز المديح والرثاء إلى تخليد الوقائع الأسطورية الخارقة للعادة استرسالاً عن استعارة (الابن سلاح) نفسها، ولكانت المعاني الملحمية جنساً شعرياً عندهم يظهر في تخليد أبطالهم في الحياة وبعد الممات^(٢)، وستكون بذلك المعاني الشعرية محدودة الاتساع من جهة الأخلاق الإنسانية المحضة في مقابل اتساع ما فيها من خرافة وافتراض وقوعها، وقد نبه القرطاجني إلى مسألة الغياب هذه في قوله: "فإنَّ أشعار اليونانية إنما كانت أغراضاً محدودة في أوزان مخصوصة، ومدار جل أشعارهم على خرافات كانوا يضعونها يفرضون فيها وجود أشياء وصور لم تقع في الوجود"^(٣).

ب. تبعاً لما جاء في (أ) فإنَّ طبيعة التصور الاستعاري عند العرب لاستعارة (الابن سلاح) يؤكد البُعد الغنائي لشعر الرثاء في أدبنا العربي، كما يتأكد التزام الشعراء بهذه الغنائية التي سمحت بامتزاج معاني المديح بالرثاء، ومن المهم التنبيه إلى مصطلح التأيين عندهم؛ فابن سلام يقول:

(١) انظر: الأصفهاني، الأغاني. تحقيق: د. إحسان عباس ود. إبراهيم السعافين وأ. بكر عباس، (د.ط، بيروت: دار صادر، د.ت)، ٦، ١٩٢.

(٢) ولذا لا نجد عندهم ربطاً تصويرياً بين (الابن) و(السلاح) ربطاً خارقاً للعادة ولو على سبيل تخليد أجدادهم الذين يفخرون بالانتساب إليهم، مثل مُضر، وربيعة، ومُعد، وغيرهم.

(٣) القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (ط٣، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦م)، ص ٦٨.

”وأخبرني يونس بن حبيب أنَّ التأيين مدح الميت والثناء عليه^(١)“، وخلاصة القيمة العلمية من هذه المصطلح تظهر في أمرين اثنين؛ أولهما في دلالة المصطلح على طبيعة المعنى الشعري المُسترسَل عن استعارة (الابن سلاح)؛ فهو معنى صالح لإبراز المشهد التصوري للإنسان حيًّا أو ميتًّا، أي إنَّه رجل يُمدَح ويُرثَى بما هو مألوف من طباع البشر المحموده، وبذلك يغيب الاستغراق في الخيال الشعري الذي يجعل المعنى الشعري محصوراً في فئة محدودة جداً من الناس وهي فئة العظماء النادرين في الجنس البشري، وفي المقابل نجد الأنظمة التصويرية الداعمة لاستعارة (الابن سلاح) في صفتها الإنسانية المعتادة تسمح بإبراز استعارة التوجه الزمني، واستعارة المحاسبة الأخلاقية، على نحو ما تقدم بيانه^(٢)، وكلاهما يظهران فيما عرضه ابن سلام في طبقة شعراء المراثي، والثاني هو في ضرورة الاستعانة بالأدوات العلمية المناسبة لدراسة المعاني الشعرية الغنائية عند العرب، ولقد أبان القرطاجني عن هذه الحاجة عن طريق ملاحظة كثرة الحكم والأمثال في شعر العرب موازنة بما هو عند اليونانيين^(٣)، وهذه الحكم شائعة في شعر المراثي عند العرب، ولقد سُمِّي كعب الغنوي المشهور بمراثيه الجيدة كعب الأمثال^(٤).

ج. قلة المعنى الشعري في رثاء الأنثى موازنة مع الرجل، وهذه مسألة يرى العقاد أنَّها كونية تشترك فيها آداب الأمم؛ فهو يقول: ”من أعجب ما يلاحظ على آداب الأمم قلة ما نظمه الشعراء في رثاء النساء ولا سيما الزوجات“^(٥)،

(١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ١: ٢٠٩.

(٢) انظر الفقرة الثالثة من هذا البحث.

(٣) انظر: القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٦٩.

(٤) انظر: الأصمعي، فحول الشعراء. تحقيق: ش توري، (ط٢)، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٤٠٠هـ/

١٩٨٠م)، ص ١٤.

(٥) العقاد، من وحي المرأة. مجلة الرسالة ٦٢٥، (١٣٦٤هـ / ١٩٥٤م): ٦٥٩.

وخلافاً للعقاد نجد د. شوقي ضيف يستعرض نماذج من معاني رثاء المرأة في شعرنا القديم ويُقرر أن الزوجة ربما كانت "أهم النساء اللاتي ذرفَ الرجال عليهنّ الدموع"^(١)، وهذا التباين سببه الرؤية الموضوعية للمسألة؛ فمن خلال توظيف المعرفة التجريبية نلاحظ خضوع هذا القليل لاستعارة (الابن سلاح)، وهو ما يعني أن تكون الزوجة والأم أكثر حظاً في معاني الرثاء الشعرية من الابنة والأخت نتيجة تنشيط خطاطة الوعاء بتأثير مباشر من استعارة (الابن سلاح)، وتُعد قصيدة جرير في رثاء امرأته، ومرثية المتنبي لجده ماثلين جيدين في هذه المسألة، ثم إن في اتصال العرب بعد جاهليتهم بغيرهم من الأمم -وتحديدًا الفرس- ما أتاح إبراز قيمة تصويرية أخرى لاستعارة (الابن سلاح) أتت منها التعزية بموت الأنثى في فني الشعر والكتابة، أي إن الأمر آل فيما بعدُ عندهم إلى تطور المعنى الأدبي للرثاء ضمن تطور منظومة الأجناس الأدبية.

د. إعطاء حكم نقدي يمس معاني الرثاء الشعرية عند العرب من جهة ضعف المستوى الغنائي فيها نتيجة امتزاج معاني المديح بالرثاء؛ فقدمة يقرر عدم الفصل بين المرثية والمدحة "إلا أن يُذكر في اللفظ ما يدل على أنه لها لك"^(٢)، وبناء على ذلك فإن تأيين الميت يكون على نحو ما كان يُمدح به في حياته^(٣)، ويوافق الرافعي قدماً في ذلك؛ فالعرب أقل من غيرهم في وصف أماكن الألم في النفس، بل إن العبرانيين -وهم كالعرب ساميون- أكثر منهم في وصف فجاعة الموت والغوص في العالم العاطفي عند الإنسان، ويرد الرافعي ذلك عند العرب إلى ما يتعلق بالبداءة والأخلاق^(٤)،

(١) شوقي ضيف، الرثاء. (ط٤، القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ص ٢٥.

(٢) قدامة بن جعفر، نقد الشعر. تحقيق: كمال مصطفى، (ط٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت)، ص ١٠٠.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٤) انظر: الرافعي، تاريخ آداب العرب. (د.ط، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م)، ١٠٦: ٣.

وهذا الحكم النقدي يُقدم تفسيراً موضوعياً لمرحلة ظهرت فيها محاولات طمس الغنائية في المعاني الشعرية نتيجة محاولة طمس المعنى الشعري المُسترسَل عن استعارة (الابن سلاح) وخطاطة الرفاهية لصالح إبراز المعاني الخطابية ذات الصفة العقلية التأملية في مسألتَي الحياة والموت، واتخاذ الرثاء مجالاً لبث التصور الحجاجي في هذه المسألة على نحو ما نجده في رثاء أبي العلاء المعري، ومن الجائز أن تكون استعارة التوجه الزمني مؤثرة بشكل غير مباشر في هذا الطمس.

ولأنَّ هذه الدراسة تحرص على كشف استرسال معاني الرثاء الشعرية عن استعارة (الابن سلاح) فإنني سأكتفي بدراسة ما جاء في (ب) و(ج)؛ إذ يحتاج تناول ما جاء في (أ) و(د) إلى دراسة أوسع.

المطلب الثامن

البعد الغنائي لاستعارة (الابن سلاح) في رثاء الرجل

أفرد ابن سلام شعراء المراثي في طبقة مستقلة أتى بها بعد أن استوفى طبقاته العشر^(١)، وكانت طريقة عرضه لهم من حيث الإجمال على النحو الذي نجده في الجدول الآتي:

الشاعر	المَرثي في شعره	سبب واقعة الموت
مُتمم بن نُويرة	أخوه مالك بن نُويرة	قتله خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حروب الردة
الخنساء بنت عمرو	رثت أخويها صخرًا ومُعاوية	قتلت بنو أسد أخاها صخرًا، وقتل بنو مرة غطفان أخاها معاوية
أعشى باهلة	أخوه المنتشر بن وهب بن معن	قتله بنو الحارث بن كعب
كعب بن سعد	أخوه أبو المغوار	مات من مرض أصابه وقد انتقل إلى البادية طلبًا للشفاء

من الملاحظ أنَّ المَرثيَّ عند شعراء هذه الطبقة من الرجال، وبذلك ينحصر المعنى الشعري عنده في الرجل، ثم إنَّ واقعة الموت بسبب القتل عنصر مشترك عند ثلاثة شعراء تقدم ذكرهم ذكر كعب الغنوي، وهم متمم والخنساء وأعشى باهلة، وبذلك تبرز عمليتان ذهنيَّتان هما: استعارة المحاسبة الأخلاقية، واستعارة التوجه الزمني، أما الأولى فتتناسب مع واقعة الموت بسبب القتل، وأما الأخرى فتعني أنَّ الموت قادم لا محالة وأنا مقبلون عليه، ومع قدوم الموت يتحقق غياب استعارة (الابن سلاح) وانهايار خطاطة الرفاهية ضرورة لا اعتداءً كما هو الحال في الأولى.

(١) قال ابن سلام: "وصيرنا أصحاب المراثي طبقة بعد العشر طبقات". طبقات فحول الشعراء، ١: ٢٠٣.

يقدم ابن سلام متمماً على شعراء هذه الطبقة^(١)، مع ملاحظة أنَّ مريثة كعب في أخيه أبي المغوار من أجود شعر الرثاء عند العرب، وبحسب الأصمعي فإنه ليس للعرب مثلاً^(٢)، وعندي أنَّ علة الترتيب والتقديم والتباين في الحكم عند هذين العلمين هي النظر في الذات المُدرِكة لواقعة الموت سواء أكانت هذه الذات الشاعر أم المتلقي؛ فابن سلام يعد موقف الذات المُدرِكة لواقعة الموت بتأثير استعارة المحاسبة الأخلاقية أقوى من استعارة التوجه الزمني في إنجاز المعنى الشعري، إذ يكون انهيار خطاطة الرفاهية مع هذه الاستعارة متصلاً بسلبها وانتزاعها من الآخر، وبذلك تكون أشد إيلاماً في النفس من انهيارها مع استعارة التوجه الزمني، وفي المقابل قد يكون موقف الذات المُدرِكة من حتمية انهيار هذه الخطاطة مع استعارة التوجه الزمني ما يؤدي إلى تنشيط خطاطة الدوران؛ فدورة حياة الإنسان تنتهي بالموت وهو أشد ما يخافه، ويظهر أثر تنشيط هذه الخطاطة في صياغة المعنى الشعري؛ فتغلب عليه الأمثال الدالة على هذه الحتمية كما في مريثة أبي ذؤيب التي استغرق فيها تصوير ثلاثة أمثلة لهذه الحتمية، ابتداءً كل مثال تصوري منها بقوله: "والدهر لا يبقى على حدثانه"^(٣).

ثمة عوامل إدراكية معقدة بشكل ملحوظ عند متمم موازنة مع الخنساء وأعشى باهلة مع اتفاقهم جميعاً في طبيعة واقعة الموت، وتتحدد هذه العوامل فيما ساقه ابن سلام عن خبر مقتل مالك بن نويرة وكان لها أثر في استرسال المعاني الشعرية في رثائه؛ فهي تدل على ما يتمتع به مالك من أوصاف تتسجم مع استعارة (الابن سلاح) في بيئتين إدراكيتين هما الجاهلية والإسلام؛ فهو في الجاهلية رجل شريف وفارس شجاع كان يُقال له الجفول^(٤)، وفي الإسلام لم يُحمد أمره بعد موت النبي

(١) فهو يقول: "والمُقدَّم عندنا مُتمم بن نُويرة، ويكنى أبا نهشل". السابق، ١: ٢٠٤.

(٢) انظر: فحولة الشعراء، ص ١٤.

(٣) انظر: المفضل الضبي، المفضليات، ص ٤٢٢، و٤٢٥، و٤٢٧.

(٤) انظر: ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ١: ٢٠٥. وانظر ما أورده محمود شاعر في بيان معنى هذا الوصف في الحاشية رقم ٢، ومما جاء فيها: "قلت: ولعله سُمي الجفول لجراته وإقدامه".

ﷺ^(١)، وتظهر قيمة هذا التباين في استحالة إعادة بناء خطاطة الرفاهية بأخذ الثأر ممن قتله حسب ما تقتضيه استعارة المحاسبة الأخلاقية، وبمعنى آخر تجتمع في واقعة مقتل مالك بن نويرة إحساس الذات المدركة بانهايار خطاطة الرفاهية من جهتين تصويريتين اثنتين هما استعارة المحاسبة الأخلاقية واستعارة التوجه الزماني؛ وذلك نتيجة مقتل مالك في حروب الردة، وهو ما يعني عمق الأثر النفسي عند متمم، ويستدل على هذا الأثر من قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمَتَمَم: ”لَوْ كُنْتُ شَاعِرًا لَقُلْتُ فِي أَخِي أَجُودَ مِمَّا قُلْتُ، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ كَانَ أَخِي أَصِيبُ مُصَابِ أَخِيكَ مَا بَكَيْتُهُ“^(٢)؛ فزيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد قُتِلَ في الحروب نفسها، ولكنه قُتِلَ شهيداً في سبيل الله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٣).

يُفَضِّلُ الأصمعي المعاني الدالة على انهيار خطاطة الرفاهية مع استعارة التوجه الزماني؛ فأجود مطالع شعر الرثاء عنده قول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كعدة: أَيْتَهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحْذِرِينَ قَدْ وَقَعَا فَقَدْ قَالَ الأصمعي: ”ولم أسمع قط ابتداء مرثية أحسن من ابتداء مرثيته“^(٤)، ويبنى على هذا استحسان تمكن الشاعر من الدلالة على مقصده من أول بيت استرسالاً عن هذه العملية التصويرية التي تعني الإبانة عن الخوف والحذر من حتمية فقدان خطاطة الرفاهية، وتقوم اللغة بواجبها في دعم الاستدلال على هذا الفقد بما فيها من أدوات وتراكيب، ومن ذلك استغلال الإنشاء الطلبي؛ كالنداء والأمر، وتظهر القيمة الجمالية من التراكيب الإنشائية في إبراز التحاور مع الذات المدركة، وحملها على التجمل والصبر، مع ملاحظ أن هذه الذات تميل إلى الحوار

(١) انظر: ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ١: ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق، ١: ٢٠٩. وتوضيح الخط من الباحث.

(٣) سورة البقرة، الآية رقم ١٥٤.

(٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ١: ٢٠٢.

مع الأنثى عن طريق توجيه النداء والأمر إلى النفس أو إلى امرأة يحاورها الشاعر، وفي اختيار الحوار مع الأنثى دلالة جمالية في التصور من اللاوعي الإدراكي؛ إذ كانت الأنثى عنصراً مركزياً في خطاطة الرفاهية، وتبرز الدلالات الجمالية على هذه العملية التصويرية في نماذج معدودة في ذروة شعر الرثاء القديم عند العرب، ومن ذلك إجراء الحوار بصيغة الاستفهام على لسان المرأة (أميمة) في قول أبي ذؤيب الهذلي:

قالت أميمة: ما لجسمك شاحباً منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع؟
أم ما لجنبك لا يلائم مضجعاً إلا أقض عليك ذاك المضجع؟
فأجبتها: أما لجسمي أنه أودى بني من البلاد فودعوا
أودى بني وأعقبوني غصةً بعد الرقاد وعبرة لا تقلع^(١)

يُبرز الحوار: (قالت) و(أجبتها) المشهدَ التصويري الدال على فقدان خطاطة الرفاهية، وعندما يكون مصدر الحوار المرأة -وهي عنصر مركزي في خطاطة الرفاهية- فإن ذلك محاولة منها لإعادة بناء هذه الخطاطة من جديد، ويتأكد ذلك عن طريق صيغ الاستفهام الصادرة عنها لتسويق إعادة البناء في عالم الذات المدركة^(٢)، وذلك من خلال إثبات حصول المال في الوقت الحاضر وقرب العهد بالرخاء في الماضي القريب، وفي المقابل فإن الذات المدركة تبطل محاولات البناء في التصور بسبب شدة الإحساس بفقد استعارة (الابن سلاح) نتيجة موت الأبناء، وعدم اكتمال هذه الاستعارة لا يسمح بالمحافظة على خطاطة الرفاهية.

ومن جهة أخرى فإن الحوار قد يعتمد على أن تستقبل المرأة ما يقوله الرجل،

(١) المفضل الضبي، المفضليات، ص ٤٢١.

(٢) من الملاحظ في هذا السياق أن الحوار عندما يكون من الرجل فإنه يتجه إلى المطالبة بهدم خطاطة الرفاهية، ويكون بذلك ناتجاً إدراكياً عن هذه العادة أتت منها ظاهرة توجيه الأمر بالنوح والبكاء على الميت إلى الأنثى وحثها على ذلك، بل قد يحثها الرجل قبل أن يموت كما في قول طرفة:

فإن مت فأنعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الحبيب يا ابنة معبد

فلا تكون في هذه الحال مصدرًا لمحاولة إعادة البناء أو تسويقها، كما في قول كعب الغنوي^(١):

تَقُولُ سُلَيْمَى مَا لَجَسْمَكَ شَاحِبًا	كَأَنَّكَ يَحْمِيكَ الشَّرَابَ طَبِيبُ
فَقُلْتُ وَلَمْ أَعِيَ الْجَوَابَ وَلَمْ أَلْحَ	وَلِلدَّهْرِ صُمٌّ السَّلَامَ نَصِيبُ
تَتَابُعُ أَحْدَاثَ تَخَرَّمْنَ إِخْوَتِي	وَشَيْبَنَ رَأْسِي وَالْخَطُوبُ تُشِيبُ
أَتَى دُونَ حُلُوِّ الْعَيْشِ حَتَّى أَمَرَهُ	نُكُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ نُكُوبُ
لِعَمْرِي لئن كَانَتْ أَصَابَتْ مَصِيبَةُ	أَخِي، وَالْمَنَايَا لِلرِّجَالِ شَعُوبُ
أَخِي كَانَ يَكْفِينِي وَكَانَ يُعِينُنِي	عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنْوُبُ ^(٢)

ولو قيل إنَّ ما يكون من حوار سببه ضرورة المناجاة والشكوى التي يحتاج إليها المعنى الشعري في مثل هذا المقام، وأن الاكتفاء بهذه الضرورة -وهي ضرورة موضوعية- يلغي الحاجة إلى اللوازم التجريبية في التصور، فإنَّ الجواب عن ذلك أنَّ استعارة التوجه الزمني لا تبرز في معاني الرثاء وحدها، بل نجد معالمها فيما هو من مقدمات قُرب الموت، كذم الشيب والتحسر على الشباب، وذم الدهر، ويغلب على هذه المعاني استغلال التركيب في صيغة التأنيث والحوار مع المرأة، وفي هذا ما يصف أثر التلازم بين استعارة (الابن سلاح) وخطاطة الرفاهية، وهو ما يُضفي على المعاني الشعرية توصيفًا عميقًا للذات المدركة تتصدى العمليات الذهنية لتفسيره والكشف عن معالمه.

إنَّ تأخير كعب الغنوي عن الثلاثة له دلالة الإدراكية؛ فالأصمعي يعد مرثيته في أخيه من أجود ما قالته العرب، وبذلك فإنَّ الحكم النقدي على المعنى الشعري في الرثاء عند الأصمعي ينسجم مع استعارة التوجه الزمني بالنسبة إلى استعارة

(١) أتت في الأصمعيات منسوبة إلى غُرَيْقَةَ بن مُسَافِعِ العَبْسِيِّ، والصواب ما أثبتته محققا الكتاب من نسبتها إلى كعب بن سعد الغنوي يقيناً. انظر: الأصمعي، الأصمعيات. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون. (ط٨، القاهرة: دار المعارف، ٢٠٢١م). ص ٩٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٩٨. وانظر فيها شرح الأبيات وغريبها.

(الابن سلاح) وخطاطة الرفاهية، في حين أنَّ الحكم النقدي نفسه عند ابن سلام ينسجم مع استعارة المحاسبة الأخلاقية بالنسبة إلى استعارة (الابن سلاح) وخطاطة الرفاهية أيضًا، ويظهر أثر هذا التباين فيما آل إليه المعنى الشعري في الرثاء؛ فقد اختلفت أحكام النقد في ابتداء أبي تمام مرثيته في محمد بن حميد الطائي:

كذا فليجلَّ الخطبُ وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يَفُضْ مأوئها عُذْرُ^(١)

فعابه قوم لأنَّ فيه إشارة إلى معدوم واستعطاف غير معلوم، وهو ما يعني عند من عاب الابتداء استحسانَ معاني التأبين الشعرية قبل استعظام فقد الفقيد، وهذا ينسجم مع موقف ابن سلام السابق، وأمَّا من استحسنته أو لم يرَ في هذا الابتداء عيبًا فإنَّه يتخذ موقفًا نقديًا ينسجم مع موقف الأصمعي في استحسان أن تكون الإبانة عن انهيار خطاطة الرفاهية هي المشهد التصويري البارز في المعنى الشعري.

(١) أبو تمام، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٤: ٧٩. وانظر ما جاء في الحاشية رقم (١) حول مأخذ النقد في هذا المطلع، ودعوى انتحال بيت قبله لستر العيب في هذا المطلع.

المطلب التاسع

البعد الغنائي لاستعارة (الابن سلاح) في رثاء المرأة

تقدم أن المرأة تقع في مركز النظام التصوري لخطاطة الرفاهية، ولذا فإن تأثير استعارة (الابن سلاح) في المعنى الشعري لراثائها يأخذ في الاعتبار طبيعة هذه المركزية بالنسبة إلى الذات المُدرِكة، وخالصة المسألة التي يدافع عنها الباحث: أن المرأة في كونها وعاء للابن تختلف مكانتها التصورية باختلاف قربتها من الرجل وانتقاعه بالابن منها، وبذلك تنشط خطاطة الوعاء بدعم من استعارة (الابن سلاح) وخطاطة الرفاهية مما يقود إلى عملية استدلالية محددة نجدها في قول الشاعر:

بنونا بنو أبناءنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعاد^(١)

ووفق هذا الاستدلال بنى المرزوقي شرح المعنى الشعري في قول حسان بن عليّة:

إذا كنت في سعد وأمك منهم غريباً فلا يغرك خالك من سعد

بقوله: "إذا كنت بعيداً عن وطنك وذويك من قبل أبيك، وحاصلاً في بني خالك، ضارباً فيهم بسهم الخوولة، لكون أمك منهم، فلا تغتر بهم، ولا تعتمد على قربتك فيهم، فإن التشابك الموثوق به المستصلح لإعداده، إذا كان الالتحام بالأبوة لا بالأُمومة. فأما الخوولة فمشابهة للغربة، بعيدة من القربى والقربة، والمكانفة والنصرة^(٢)".

وبناء على ذلك فإن المرأة عندما تكون زوجاً للرجل أو أمّاً له فإنها بحسب هذا

(١) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ٢: ٥٢٠.

(٢) المصدر السابق، ٢: ٥٢٠.

الاستدلال مُكوّن جيد لاسترسال المعنى الشعري المناسب لاستعارة (الابن سلاح) ولوازم خطاطة الرفاهية مع هذه الاستعارة على نحو غير مطرد؛ فالذات المُدرّكة قد تميل إلى تجاهل واقعة الموت والتفاخر بإظهار التجلد والحزم بتأثير من خطاطة الوعاء نفسها عندما تكون المرأة زوجًا؛ ففي الكامل أن امرأة للفرزدق ماتت عنده وهي جمع، أي في بطنها ابن منه، فقال متجاهلاً الحزن على فقدها:

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح عليه ولم أبعث عليه البواكيا
وفي جوفه من دارم ذو حفيظة لو أن المنايا أنسأته لياليا^(١)

وفي المقابل تضعف معاني الرثاء الشعرية إلى مستوى الغياب بتأثير من استعارة (الابن سلاح) وخطاطة الوعاء ولوازمهما عندما تكون المرأة بنتًا أو أختًا للرجل؛ فالبحتري يطمس معاني الرثاء تمامًا استنادًا على ضعف الامتزاج بين الأنظمة التصويرية لاستعارة (الابن سلاح)، وذلك في قوله لأبي نهشل محمد بن حميد وقد ماتت ابنته:

أتبكي من لا يُنازل بالسيّد ف مُشبحًا ولا يهز اللّواء
والفتى من رأى القبور لما طا ف من بناته أكفاء
لسن من زينة الحياة كعدّ الـ له منها الأموال والأبناء
قد ولدن الأعداء قدما وورث من التلاد الأقاصي البُعداء
لم يند كثرهنّ قيس تميم عيلة بل حمية وإباء
وتغشى مهلهل الذلّ فيه من وقد أعطي الأديم حباء
وشقيق بن فاتك حذر العار ر عليهنّ فارق الدهناء^(٢)

ثم يختم قصيدته بما يؤكد طمس معاني الفجيعة والحزن بقوله:

ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبيت الرجال تبكي النساء^(٣)

(١) ويُلاحظ من قول الفرزدق هذا التصريح بخطاطة الوعاء بالنسبة إلى استعارة (الابن سلاح)

(٢) أبو عبادة البحتري، ديوان شعري. تحقيق: حسن كامل الصيرفي، (ط٤، القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٧م)، ٤٠: ١، ٤١.

(٣) المصدر السابق، ٤١: ١.

إنَّ الوعي بهذه المؤثرات الإدراكية في أعراف العرب وتقاليدهم يساعد في تصور معاني الرثاء عند جرير لامراته أم حزره في قصيدة له هي من شعر النقائض، وقد افتحها بقوله:

لولا الحياءُ لعادني استعبارٌ ولزرتُ قبرك والحبیبُ يُزارُ^(١)

ففيها معانٍ لا تخلو من اعتبارات إدراكية منتظمة تجعلها أكثر إبانة عن معانٍ شعرية لأغراض شعرية أخرى مُصاحبة للرثاء كالفخر والهجاء، وهو ما يعني امتزاجًا وتداخلًا على مستوى الجنس الأدبي ضمن حدوده الغنائية.

تُوضَع قصيدة جرير إزاء ما قاله الفرزدق في حدراء بنت زيق وهي امرأة خطبها وماتت قبل البناء بها، فذكر موتها وتجنب إظهار الفجيعة والحزن عليها، وعليه فإنَّ إعراض الفرزدق عن رثائها مع هجائه جريرًا بأمه وامراته، هو مما يتناسب مع البيئة الإدراكية المعاصرة لشعر النقائض وما تضمنته من عمليات إدراكية في التصور والاستدلال؛ فهي تأخذ في الاعتبار الانتظام الذهني لخطاطة الوعاء عند جرير والفرزدق بالنسبة إلى عدد من النساء أتى ذكرهن تبعًا لواقعة خطبة الفرزدق حدراء بنت زيق بن بسطام، ثم حادثة موتها قبل البناء بها، ويبين الجدول التالي كيفية الاستدلال مع هذا الانتظام التصوري:

طبيعة خطاطة الوعاء	التصور عند الفرزدق	التصور عند جرير
النوار أم الحنظليين	فخر ومديح	فخر ومديح
النوار بنت أعين (امرأة الفرزدق)	ذمها عند موازنتها بحدراء	فخر جرير بالحنظليات وهي منهن
حدراء الشيبانية	فخر، وهجاء جرير بها	فخر، وهجاء الفرزدق بها
أم حزره (امرأة جرير)	ذمها وتحديدًا عند موازنتها بحدراء	فخر، وتحديدًا عند موازنتها بأم الفرزدق وأم البعيث
جميع النساء الحنظليات	غائب	فخر جرير بهن

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق، ٣: ٩٦١.

تعد حدرأء - وكذلك أم حزرة - عنصرًا مركزيًا جيدًا في عملية الاستدلال على خطاطة الوعاء فيما يصب في صالح استعارة (الابن سلاح) مدحًا وفخرًا وهجاءً، أي إنها ذات قيمة تصويرية عالية تتناسب مع شعر النقائض عند الشعارين معاً^(١)؛ فالفرزدق يهجو جريراً بها وكذلك يفعل جرير، وتكون بذلك أم حزرة في رثاء جرير لها عنصرًا مركزيًا آخر مع هذا التهاجي، ويظهر أثر هاتين المركزيتين في الإدراك بالنسبة إلى بقية النساء في التوضيحات الموجزة الآتية:

أ- خطاطة الوعاء بالنسبة إلى النوار بنت جَل بن عدي:

يتفق الشاعران في الفخر بها؛ فهي أمُّ حنظلة الأغر الذي فيه بيت تميم شرقاً وعزاً، ومن دلالات تحقق استعارة (الابن سلاح) معها قول جرير لعمر بن لجأ:

فلم تلدوا النوار ولم تلدكم مَفْدَاءُ المباركة الولود^(٢)

كما أنَّ الفرزدق تحامى هجاء رجل من بني عدي إذ كان من نسلها؛ فهو يقول:
ولولا أن يقول بنو عدي أليست أم حنظلة النوار
إذا لأتى بني ملكان مني قواذف لا تقسمها التجار

وقيل في شرح ما قاله: "أي لولا أنَّ النوار وهي بنت جَل بن عدي من جدات الفرزدق ولدتكم لهجوتكم"^(٣).

(١) تدعم استعارة (الابن سلاح) القيمة التصويرية لحدرأء في استرسال معاني الفخر والمديح والهجاء؛ فهي حدرأء بنت زيق بن بسطام بن ذهل بن شيبان، جدُّها بسطام بن قيس أحد فرسان العرب وأعلامهم في الجاهلية، وأخوها جدُّها بسطام السليل، والأحوص الكبير، فضلاً عن أنَّ أباهما وأعمامها وإخوانها من أعلام العرب المعدودين، وهي مع هذا امرأة نصرانية خطبها الفرزدق ورضي أن يسوق إليها مائة بغير مهر لها، وبذلك تتحقق معها الاستعارة الاتجاهية نحو الأعلى ويكون الفرزدق مكافئاً لها في النسب، ولأنها ماتت قبل البناء بها برزت القيمة التصويرية المناسبة للهجاء بدعم من استعارتي (الابن سلاح) والاستعارة الاتجاهية نحو الأسفل بالنسبة إلى جرير، وفي كلا العمليتين التصويريتين تُسترسَل المعاني الشعرية المناسبة للغرض بحسب الذات المُدرَكة عند الشعارين.

(٢) قال ابن سلام: "فتزوج مالك بن زيد مناة النوار بنت جَل بن عدي ... وكانت امرأة زولة جزلة ... فولدت حنظلة الأغر، وفيه بيت تميم وشرفها". ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ١: ٣١.

(٣) شرح نقائض جرير والفرزدق، ٣: ٩٢٢.

ب- خطاطة الوعاء بالنسبة إلى النوار بنت أعين:

وهي ابنة عمّة الفرزدق، وقد خدعها عندما وَلَّته أمرَ تزويجها من خاطبٍ خطبها فغدر بها وصرف عقدَ نكاحها إلى نفسه، وعندما أبت واستعدت عليه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال الفرزدق:

هَلُمَّ إِلَى ابْنِ عَمِّكَ لَا تَكُونِي كَمُخْتَارٍ عَلَى الْفَرَسِ الْحَمَارِ^(١)

ثم إنَّ صلة النوار بما هو حاصل عن امتزاج خطاطة الوعاء باستعارة (الابن سلاح) ضعيفة لأنَّ أمها أمة؛ ولذا يُفَضِّلُ الفرزدق حدراء عليها وإن كانت نصرانية عملاً بمقتضى الاستعارة الاتجاهية نحو الأعلى، وذلك في قوله:

لَجَارِيَةٍ بَيْنَ السَّلِيلِ عَرُوقُهَا وَبَيْنَ أَبِي الصَّهْبَاءِ مِنْ آلِ خَالِدٍ
أَحَقُّ بِإِغْلَاءِ الْمَهْوَرِ مِنَ الَّتِي رَبَّتْ وَهِيَ تَنْزَوِي فِي حُجُورِ الْوَلَدِ^(٢)

ج- خطاطة الوعاء بالنسبة إلى سائر النساء الحنظليات من بني تميم:

تبعاً لمقتضى الاستعارة الاتجاهية نحو الأعلى فإنَّ النساء الحنظليات من نسل حنظلة الأغر وأمّه هي النوار بنت جلٍّ، ولذا فإنَّ غلاء مهر حدراء وقبول الفرزدق به يقود إلى استدلالات تصويرية متعارضة تُحددها الذات المُدرِكة في بيئة إدراكية محددة؛ فبالنسبة إلى جرير فإنَّ الفرزدق قَيْنٌ وليس كُفْئاً لآل بسطام ولا لنساء قومه الحنظليات، وبذلك يسلب جرير من قوم حدراء استعارة (الابن سلاح) ولوازمها في التصور كاستعارة المحاسبة الأخلاقية وخطاطة الرفاهية؛ فقد قتلت بنو ضبة أخوال الفرزدق جدها بسطاماً، وبناء على هذه المعطيات يقول جرير:

بَنِي مَالِكٍ أَدَوُا إِلَى الْقَيْنِ حَقَّهُ وَلِلْقَيْنِ حَقٌّ فِي الْفَرَزْدَقِ وَاجِبٌ
أَثَاثَةُ حَدْرَاءُ مِنْ جُرٍّ بِالْقَنَا وَهَلْ فِي بَنِي حَدْرَاءِ لِلْوَتْرِ غَالِبٌ
أَثَاثُ بِسْطَامًا إِذَا ابْتَلَتْ اسْتَهَا وَقَدْ بَوَّلَتْ فِي مَسْمَعِهِ الثَّعَالِبُ

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق، ٣: ٩٢٤.

(٢) المصدر السابق، ٣: ٩٢٥.

ذكرت بنات الشمس والشمس لم تلد
ولو كنت حراً كان عشرُ سياقه
وأيهات من حوق الحمار الكواكبُ
إلى آل زيق والوصيف المقارب^(١)

وثمة استدلال آخر تحدده النساء الحنظليات، وهو أن استعارة (الابن سلاح) ولوازم خطاطة الرفاهية تتحققان عندهن لصالح جرير وإن كن من بني مجاشع قوم الفرزدق لمديحه لهن؛ فابن سلام يروي قول جرير فيهن:

فلا أنا مُعطي الحكم عن شف منصب
وهن كماء المزن يُشفى به الصدى
ولا عن بنات الحنظليين راغب
وكانت ملاحاً غيرهنّ المشارب^(٢)

ثم قال: "ما كانت امرأة من بني حنظلة إلا ترفع لجرير اللوية في عكها تُطرفه"^(٣).

وإذا أخذ في الاعتبار هذه المكانة التصويرية لخطاطة الوعاء في الذاكرة التصويرية عند العرب ووقوع ما جاء في (أ، ب، ج) تحت تأثير استعارة (الابن سلاح) في بيئة إدراكية مخصوصة نتج عنها شعر النقائض؛ فإن ما قاله الفرزدق في موت حدراء هو طمس لمعاني رثاء المرأة لصالح الفخر والهجاء، وذلك في قوله:

يقولون زر حدراء والترّب دونها
ولست وإن عزّت عليّ بزائر
وأهون مفقوداً إذا الموت ناله
وكيف بشيء وصله قد تقطعا
تراباً على مرموسة قد تضعضعا
على المرء من أصحابه من تقنعا^(٤)

وجاء في شرح معنى البيت الأخير: "يقول: المرأة أهون فقداً من الرجل"^(٥).

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق، ٣: ٩٣٠، ٩٣١.

(٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ٢: ٣٩٤.

(٣) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ٢: ٣٩٦. وفي المتن نفسه: "اللوية الشريعة من اللحم...". وفي شرح نقائض جرير والفرزدق، ٣: ٩٢٦، أن جريراً قال ذلك نصرة لامرأة الفرزدق النوار بنت أعين عندما شكت إليه خطبة الفرزدق حدراء.

(٤) شرح نقائض جرير والفرزدق، ٣: ٩٤٠.

(٥) المصدر السابق، ٣: ٩٤٠.

ويقود هذا الطمس إلى استدلال إدراكي تضبطه خطاطة الربط والاستعارة الاتجاهية نحو الأعلى؛ وهو عدم اقتران جرير بامرأة شريفة عالية الشأن في قومها كحدراء التي فقدها، ولذا نجد الفرزدق يعقد ربطاً تصويرياً يستغل فيه خطاطة الوعاء والاستعارة الاتجاهية نحو الأسفل؛ وذلك بأن تكون صلة جرير بالمرأة من جهة أمه وامراته في أدنى مستويات التصور؛ فهو ابن المِراغة، وامراته لا تغار عليه إلا من الأتّن:

وما مات عند ابن المِراغة مثلاً ولا تبعته ظاعناً حيث دعدعا
لعمري لقد قالت أُمَامَةُ إِذْ رَأَتْ جَريراً بذات الرقمتين تشنعا
أَمَكْتَفِل بِالرَّقْمِ إِذْ أَنْتَ واقِفٌ أَتَانِكَ أَمَ ماذا تريد لتصنعا
رَأَيْتِكَ تَغْشَى كاذبِهَا وَلَمْ تَكُن لَتَرْكَبَ إِلَّا ذَا السَّحُوجِ الْمُوقَعَا^(١)

وجاء في الشرح: "أراد الفرزدق أن جريراً ينكح الأتان^(٢)".

وبناء على ذلك فإن رثاء جرير امرأته هو محاولة لسلب الاستعارة نفسها من الفرزدق، بل إن اعتذاره عن زيارة قبرها هو صدور عن المؤثرات الإدراكية نفسها التي كانت عند الفرزدق في نفوره عن قبر حدراء^(٣)، وهو ما يعني استرسال معاني الرثاء عن استعارة الابن سلاح مع الأنظمة التصويرية الداعمة لها لصالح غرضي الفخر والهجاء، إلا أن جريراً استوفي المعاني الشعرية في الرثاء بشكل جيد انطلاقاً مما جاء في (أ، ج)؛ أي إن الاستدلال الإدراكي الجيد على الرثاء يقود إلا استدلال جيد في الفخر والهجاء، ويتحقق فخر جرير من خلال خطاطة الربط؛ فاستحقاق امرأته الرثاء في مقابل نفور الفرزدق عن رثاء حدراء هو العامل الحاسم في امتزاج الفخر بالرثاء، ثم أنه يساعد في انتقال العملية الذهنية بشكل سلس مع هذا الامتزاج من الرثاء إلى الهجاء، ويوضح الجدول الآتي استغلال جرير

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق، ٣: ٦٤١.

(٢) المصدر السابق، ٣: ٦٤١.

(٣) وهذه عادة تصويرية لها شواهد عند العرب، وغالباً ما يكون الخطاب موجهاً فيه إلى الأنثى حتى على مستوى الحيوان كالناقة والفرس.

للأنظمة التصورية المناسبة للرثاء:

النظام التصوري	المعنى الشعري المُسترسَل عنه في الرثاء	صلة النظام باستعارة (الابن سلاح)
خطاطة الوعاء	نعم القرينُ وكنتَ علقَ مَضْنَةً وارى بنعمَ بليَّةُ الأحجار ^(١)	الفعل (نعم) خاص بالمديح، وامتداح الزوجة هنا هو بالنسبة إلى الذات المُدرِكة لحُسن عَشرتها وطيب نسلها.
خطاطة الربط	ولقد أراكِ كُسيِتَ أجملَ منظرٍ ومع الجمال سَكينة ووقارٍ والريح طيبةٌ إذا استقبلتها والعرض لا دَنَسٌ ولا خَوَارٍ ^(٢)	قيل في شرح البيت: "العرض ... حُسنُ الثناء في الناس" ^(٣) وربط الزوجة بمكارم الأخلاق هو دعم لاستعارة (الابن سلاح) بالنسبة إلى الزوج الذي يطلب لنفسه الصلة نفسها
خطاطة الرفاهية	ولَهتِ قلبي إذ علتنِي كَبَرَةٌ وذوو التمائم من بنيكِ صِغارٍ ^(٤)	استعمال ضميري المتكلم والمخاطب هو للإحالة إلى المذكر، وبذلك يعدم الزوج وبنيه خطاطة الرفاهية مع موت المرأة بوصفها زوجاً وأماً.

ويوظف جرير الاستعارة الاتجاهية مع خطاطة الوعاء في انتقاله من الرثاء إلى
الهجاء، فانتقل إلى هجاء الفرزدق بأمه، في قوله:

أفأُمُ حَزرةَ يا فرزدقُ عِبتُمُ غَضِبَ المليكُ عليكم القَهَارُ
كانتَ إذا هجر الحليلُ فراشها خُزنَ الحديثُ وعَفَتِ الأسرارُ
ليستَ كَأَمَكُ إذ يعض بِقَرطِها قينُ وليس على القرونِ خمارُ^(٥)

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق، ٣: ٩٦١.

(٢) المصدر السابق، ٣: ٩٦٢.

(٣) المصدر السابق، ٣: ٩٦٣.

(٤) المصدر السابق، ٣: ٩٦١.

(٥) المصدر السابق، ٣: ٩٦٤.

وكذلك هجاؤه الفرزدق وقومه بحدراء في مثل قوله:

حدراء أنكرت القيون وريحهم والحرُ يمنع ضيمه الإنكار^(١)

وقرن البعيت بالفرزدق في هجائه بأمه في قوله:

قرن الفرزدق والبعيت وأمه وأبو الفرزدق قبَّح الإستار^(٢)

وتجدر الإشارة إلى أنَّ جريراً كان يسمي قصيدته هذه الجوساء لذهابها في البلاد^(٣)، والذي أميل إليه أن امتزاج الأغراض الشعرية: الرثاء، والفخر، والهجاء، وما تضمنته من عمليات إدراكية أتاحت إبراز معاني الرثاء الشعرية عن خطاطة الوعاء مع امتزاجها مع معانٍ شعرية أخرى تضبطها استعارة (الابن سلاح) هي التي تفسر ذهابها وشيوعها في الناس، وكأنَّ العنصر الجمالي في معاني رثاء المرأة يكون بإبراز مشاهد تصويرية أخرى تمتزج معه، ولعل هذا ما يفسر إتيان أبي الطيب المتنبي بمعاني الفخر في رثائه جدته لأمه استرسالاً عن استعارة (الابن سلاح) التي أبرزت مشاهد تصويرية امتزج فيها الرثاء مع معاني الفخر والحماسة، وذلك في قوله:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد	لكان أباك الضخم كوكب لي أمّا
لئن لَدَّ يومُ الشامتين بموتها	فقد ولدتُ مني لأنافهم رَغما
تغربَ لا مُستعظماً غير نفسه	ولا قابلاً إلا لخالقه حُكما
ولا سالكاً إلا فؤادَ عَجاجة	ولا واجداً غلا لمكرمة طعما
يقولون لي: ما أنت في كل بلدة؟	وما تبتغي؟ ما أبتغي جلّ أن يُسمى ^(٤)

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق، ٣: ٩٦٥.

(٢) المصدر السابق، ٣: ٩٧٣.

(٣) المصدر السابق، ٣: ٩٦١.

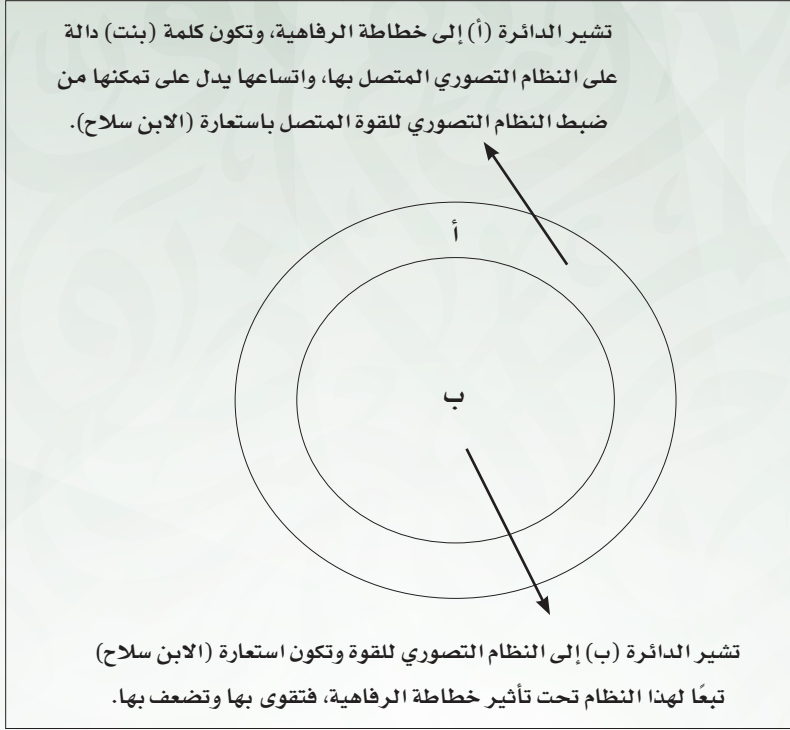
(٤) العكبري، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي. (د. ط، بيروت: دار المعرفة، د. ت)، ٤: ١٠٧.

المطلب العاشر

تطور المعنى الأدبي للرثاء ضمن منظومة الأجناس الأدبية

لقد دلت دراسة الشكل (رقم ١) على أنَّ المرأة تقع في مركز النظام التصوري لخطاطة الرفاهية، ولذا يقع على الرجل مسؤولية حماية هذه المركزية تبعاً لما تقتضيه استعارة المحاسبة الأخلاقية، وبذلك تكون خطاطة الرفاهية تحت تأثير استعارة (الابن سلاح).

غير أنَّ ثمة تطوراً ملحوظاً في الخطاب الأدبي تكون فيه استعارة (الابن سلاح) تحت تأثير خطاطة الرفاهية؛ فتُسند إلى (الابن) لوازم الضعف وقلة الحيلة على نحو ما كان عليه إسنادها إلى الأنثى في الشكل رقم (١)، وقوام هذا التحول - حسب تقدير الباحث - ضعف أثر استعارة المحاسبة الأخلاقية في استعارة (الابن سلاح) في البيئة الإدراكية الجديدة عند العرب؛ إذ أتاحَت التجربة الإدراكية في تحضر العرب إلى إبراز مشاهد تصويرية يتأكد معها البعد التصوري للفظة (البنت) بأن تكون على مستوى جيد في تصور مقولة القوة كما هو الحال مع لفظة (ابن)، وفي هذا ما يتيح تصوراً استعارياً آخر هو (البنت سلاح) يتحقق معه تطور في طبيعة الخطاب الأدبي، وخلاصة ذلك نجده في الشكل الآتي:



الشكل (رقم ٢)

تظهر القيمة العلمية من هذا الشكل في ظهور الخطاب الأدبي المتصل بالتعزية بالأنثى والتأثر بموتها؛ ففيه تبرز معاني فقد الرفاهية والإحساس بالضعف عند فقدانها بفقد المرأة ولاسيما المحظيات منهن، ويستتبع هذا الضعف وقوع استعارة (الابن سلاح) في التصور في مجال خطاطة الرفاهية، والذي يظهر للباحث أنَّ لعبد الحميد الكاتب سبقاً إلى هذا الإبراز التصوري لانتمائه إلى ثقافة فارسية تنسجم معه وتنسجم مع الواقع الجديد في حياة العرب الذي أخذ في التخلي عن آثار القيمة التصويرية القديمة لاستعارة (الابن سلاح) وأثر المحاسبة الأخلاقية في طبيعة ارتكازها في الذهن، ومن شواهد ذلك رسالة كتبها عبد الحميد عن مروان بن محمد إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد جزع الأخير عند موت حظية من حظاياها فقال مُعزياً له: ”إِنَّ اللَّهَ أَمَتَعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنَيْسَتِهِ وَقَرِينَتِهِ

متاعاً مده إلى أجلٍ مسمى، فلما تمت مواهب الله وعاريته قبض العارية، ثم أعطى أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها والصبر عند ذهابها أنفس منها في المنقلب، وأرجح في الميزان، وأسنى في العوض فالحمد لله، وإنا إليه راجعون^(١) .

ولربما ورد تساؤل خلاصته أننا نجد في معاني الغزل الشعرية التي تسبق عبد الحميد الكاتب تصور وقوع الرجل تحت تأثير المرأة بوصفها العنصر المركزي في خطاطة الرفاهية، كما في قول جرير:

إنَّ العيونَ التي في طرفها مرضٌ قتلنا ثم لم يحيين قتلانا^(٢)

وخلاصة الجواب في أن أثر استعارة المحاسبة الأخلاقية في استعارة (الابن سلاح) ضعيف مع معاني الغزل الشعرية، وهو ما يسمح بتنشيط خطاطة الرفاهية على حساب غيرها من الأنظمة التصورية الداعمة لاستعارة (الابن سلاح) في البيئة الإدراكية القديمة عند العرب، ولئن قرر العقاد أن المعنى الإنساني في رثاء المرأة حليلة كانت أم غير حليلة لم يظهر قبل ابن الرومي الذي رثى مغنية إلى جانب رثائه امرأته^(٣)؛ فإن هذا الظهور متصل بتطور العملية الذهنية لاستعارة (الابن سلاح) بالنسبة إلى واقعة الموت وموت الأنثى على وجه التحديد، وأن فن الكتابة أتاح إبراز ملاحظة هذا التطور في التصور الذهني بتأثير من الثقافة الفارسية^(٤) .

(١) محمد كرد علي، رسائل البلغاء. (ط١، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م)، ص ٢٠٦.

(٢) محمد بن حبيب، ديوان جرير. تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، (ط٥، القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٨م)، ٢: ١٦٣.

(٣) العقاد، من وحي المرأة، ص ٦٦٥.

(٤) مما يُستدل به على القيمة التصورية لخطاطة الرفاهية ووقوع تأثيرها على استعارة (الابن سلاح) خلافاً لما هو عليه الشكل (رقم ١) بما ذكره الزجاجي في أماليه: فقد قال: ”أخبرنا: علي بن سليمان قال أخبرني أبي عن جدي عن إسماعيل بن نوبخت قال: قصد أبو نواس بعض النوبختية من الكتاب، وكان بعض أجداد ذلك الكاتب كتب لبعض الأكاسرة، فوجد كسرى على بعض حظاياها فدفنها إلى ذلك الكاتب النوبختي وأمره بقتلها، فكره أن يقتلها فتتبعها نفس الملك وخشي أن يستبقها فيتهمه فاستبقاها هو وجب نفسه، ثم إن نفس الملك تتبعها فحملها إليه وعرفه ما صنع بنفسه فأكبر ذلك وقال ما جزاؤك إلا أن أجمع خاصتي وأقعدك على رقبتني، فحسده وزراء الملك وقالوا له إن هذا لقيح ولكن يأمر الملك بأن يصاغ له تاج ويصور فيه تمثاله فيجعله على رأسه ففعل فقال أبو نواس يذكر =

الخاتمة

تناولت الدراسة مسألة أثر استعارة (الابن سلاح) في تكوين المعنى الشعري للثرثاء عند العرب، ومن هذه المسألة نهدي إلى أثر الاستعارة نفسها في بيان كيفية انتظام معاني الرثاء الشعرية ضمن منظومة الجنس الشعري الغنائي في أدبنا العربي، واقتضت الدراسة لتحقيق مطالبها ابتداءً ببيان المقصود من الاستعارة المفهومية إذ كانت استعارة (الابن سلاح) مفهومية، ثم عُنيت بدراسة المعرفة التجريبية التي أتاحت ارتكاز هذه الاستعارة ذهنيًا عند العرب تمهيدًا لدراسة أثرها في القضية الأدبية والنقدية على نحو ما تقدم، وتوصلت الدراسة إلى نتائج أبرزها ما يلي:

١. تبين من دراسة المعرفة التجريبية أنَّ واقعة الموت حدث يرتبط باستعارة (الابن سلاح) بوحدة من اثنتين؛ الموت بسبب القتل، أو الموت بسبب آخر غير القتل، ومع الأولى تنشط أنظمة تصويرية أبرزها المحاسبة الأخلاقية، ومع الثانية تنشط استعارة التوجه الزمني، وفي كلا الحالتين تضبط استعارة القوة الأخلاقية هذه الأنظمة، ويتجلى ذلك في الواجب الأخلاقي عند الشاعر الذي يُحفّز عنده استرسال المعنى الشعري في الرثاء مع وجوب وقوع خطاطة الرفاهية في ضمن حدود استعارة (الابن سلاح)؛ إذ كانت استعارتا المحاسبة الأخلاقية والتوجه الزمني مرتكزتين على ذلك، سواء أكان ذلك من جهة الحث على الصبر والتجلد، أم من جهة إظهار البكاء والحسرة، وهو ما يقتضي استدلالاً عليها ضرورة إعادة بناء خطاطة الرفاهية بدعم من استعارة (الابن سلاح).

= هذه القصة...". الزجاجي، أمالي الزجاجي. (ط١، القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٣٨٢هـ)، ص ١٣٩، ١٤٠.

٢. تسوُّغ استعارة (الابن سلاح) امتزاج معاني الرثاء الشعرية بمعانٍ شعرية أخرى مصاحبة لها، ولذا أتى مصطلح التأيين عند ابن سلام في عرضه طبقة شعراء المراثي؛ فهو مديح الميت والثناء عليه، ومن أبرز النتائج العلمية الحاصلة عن هذا التسويغ تعليل قلة شعر الرثاء في المرأة؛ فإنَّ امتزاج معاني الرثاء بالمديح يؤدي إلى تضيق مساحة استرسال المعنى الشعري في رثائها، ومما يدل على ذلك أنَّ حظ الزوجة والأم من الرثاء أفضل من حظ البنت والأخت، إذَّ تمتزج مع الزوجة والأم وما علاها معاني الفخر والهجاء أو التعزية والتجمل بالصبر، وذلك ناتج عن أثر استعارة (الابن سلاح) في خطاطي الوعاء والرفاهية خلافاً للنظام التصوري المرتبط بالبنت والأخت.

٣. تؤثر استعارة (الابن سلاح) في المستوى الغنائي للمعنى الشعري في الرثاء؛ فهي تجعل معاني الرثاء ممتزجة مع معانٍ شعرية غيرها، وهذا الامتزاج مستحسن عند نقاد قدامى كابن سلام، وفي المقابل فإنَّ ثمة آخرين يفضلون خلوص معاني الرثاء من هذا الامتزاج كما هو الحال مع الأصمعي الذي استحسن شعر كعب الغنوي في الرثاء.

٤. تبين للباحث أنَّ لفن الكتابة أثرًا في ملاحظة تطور المعنى الشعري في رثاء المرأة؛ فقد كان في التعزية بالأنثى في فن الكتابة عند عبد الحميد الكاتب نتيجة خضوع استعارة (الابن سلاح) لخطاطة الرفاهية ما يدل على تطور العملية الذهنية المؤثرة في استرسال معاني الرثاء الشعرية في المرأة في مرحلة شعرية لاحقة، وعندما نرجع إلى ما يقرره العقاد في مسألة رثاء المرأة شعرًا وأسبوعية ابن الرومي في ذلك؛ فإنَّ مسألة الأسبوعية عنده مرتبطة بفن الكتابة، ثم إنَّ ابن الرومي يشارك عبد الحميد الكاتب الانتماء إلى أصول غير عربية، ومن الضروري أيضًا ملاحظة أنَّ معاني الغزل الشعرية عند العرب كانت تستلزم القيم التصورية لخطاطة الرفاهية

وما يكون من أثر سلبي في النفس عند حصول فقدتها، ولذا فإنها لا تخلو من شواهد تدل على تطور البيئة الإدراكية عند العرب لاستعارة (الابن سلاح) بتأثير من الثقافة الفارسية.

وأشير في ختام هذه الدراسة إلى أنَّ من الجائز أن ترتقي معاني الرثاء الشعرية إلى مستوى عالٍ من الغنائية الخالصة التي لا تختلط بغيرها من المعاني الشعرية عندما يرثي الشاعر نفسه، ومن الممكن الخروج بتصوّر أوسع وأشمل للغنائية في شعر الرثاء عند العرب عند دراسة العوامل الإدراكية المؤثرة في استرسال المعاني الشعرية في رثاء الشاعر نفسه، وهي دراسة قد تثبت أو تنفي مسألة قصور شعرنا العربي عن وصف مواضع الألم في الجسد الإنساني عند الرثاء بالنسبة إلى المتكلم.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).
- ابن الشجري، أمالي ابن الشجري. تحقيق د. محمود محمد الطناحي، (ط١، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٢٣هـ / ١٩٩٢م).
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء. تحقيق: أحمد محمد شاكر، (د.ط، القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م).
- ابن منظور، لسان العرب، (ط٢، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- أبو العباس المبرد، التعازي والمرثي والمواظ والوصايا. تحقيق: إبراهيم محمد الجمل، (د.ط، القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت).
- أبو العباس المبرد، الكامل. تحقيق: د. محمد الدالي، (ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).
- أبو العلاء المعري، اللزوميات. تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي، (د.ط، القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت).
- أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (د.ط، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م، مطبعة السنة المحمدية).
- أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات. تحقيق عبد السلام هارون، (ط٥، القاهرة: دار المعارف، د.ت).
- أبو عبادة البحري، ديوان شعري. تحقيق: حسن كامل الصيرفي، (ط٤، القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٧م).
- أبو عثمان الجاحظ، الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).
- أبو العباس القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب. تحقيق: إبراهيم الأبياري، (ط٢، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م).
- أبو القاسم الأمدي، المؤلف والمختلف. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، (د.ط، ١٣٨١هـ /

- ١٩٦١م، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية).
- أبو تمام، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي. تحقيق: محمد عبده عزام، (ط٢، القاهرة: دار المعارف، د.ت).
- أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، (ط١، القاهرة: دار هجر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ط، بيروت: دار الجيل، د.ت).
- ٥. الأزهر الزناد، النص والخطاب. (ط١، صفاقس: دار محمد علي للنشر، ٢٠١١م).
- الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنية. (ط١، صفاقس: دار محمد علي للنشر، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م).
- الأصفهاني، الأغاني. تحقيق: د. إحسان عباس ود. إبراهيم السعافين وأ. بكر عباس، (د.ط، بيروت: دار صادر، د.ت).
- الأصمعي، الأصمعيات. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، (ط٨، القاهرة: دار المعارف، ٢٠٢١م).
- الأصمعي، فحوالة الشعراء. تحقيق: ش توري، (ط٢، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).
- أوس بن حجر، ديوان شعري. تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، (د.ط، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).
- جورج لاكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها. ترجمة: عبد المجيد جحفة، (ط٢، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٩م).
- جورج لاكوف ومارك جونسون، الفلسفة في الجسد. ترجمة: عبد المجيد جحفة، (ط١، بيروت: دار الكتاب الجديد، ٢٠١٦م).
- الرافعي، تاريخ آداب العرب. (د.ط، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).
- الزجاجي، أمالي الزجاجي. (ط١، القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٣٨٢هـ).
- شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق: د. محمد إبراهيم حور ود. وليد محمود خالص، (ط٢، أبوظبي: منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٨م).

- شوقي ضيف، الرثاء. (ط٤، القاهرة: دار المعارف، د.ت).
- عبد الرحمن السهيلي، الروض الأنف. تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، (ط١، القاهرة: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م).
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر. تحقيق: كمال مصطفى، (ط٣، القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت).
- القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (ط٣، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦م).
- الكلبى، جمهرة النسب. تحقيق: د. ناجي حسن، (ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨١م، بيروت: عالم الكتب).
- محمد بن حبيب، ديوان جرير. تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، (ط٥، القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٨م).
- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء. قرأه: محمود محمد شاكر، (د.ط، جدة: دار المدني، د.ت).
- محمد كرد علي، رسائل البلغاء. (ط١، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
- المرزوقي، "شرح ديوان الحماسة"، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، (ط١، بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
- المفضل الضبي، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، (ط٦، القاهرة: دار المعارف، د.ت).

المجلات العلمية :

- عادل غرار، دور النماذج اللسانية في بناء وتطوير نظرية الاستعارة التصويرية. مجلة مقاربات ع ٥٢، (٢٠٢٣م).
- العقاد، من وحي المرأة. مجلة الرسالة ٦٢٥، (١٣٦٤هـ/١٩٥٤م).

Resources & References

- Ibn al-Athir. Al-Kamil fi al-Tarikh. Edited by Omar Abd al-Salam Tadmari. 1st ed. Beirut: Dar al-Kitab al-Arabi, 1997.
- Ibn al-Shajari. Amali Ibn al-Shajari. Edited by Mahmoud Muhammad al-Tanahi. 1st ed. Cairo: Maktabat al-Khanji, 1992.
- Ibn Qutaybah. Al-Shi'r wa al-Shu'ara'. Edited by Ahmad Muhammad Shakir. Cairo: Dar al-Hadith, 2006.
- Ibn Manzur. Lisan al-'Arab. 3rd ed. Beirut: Dar Sadir, 1994.
- Al-Mubarrad, Abu al-'Abbas. Al-Ta'azi wa al-Marathi wa al-Mawa'iz wa al-Wasaya. Edited by Ibrahim Muhammad al-Jamal. Cairo: Dar Nahdat Misr, n.d.
- Al-Mubarrad, Abu al-'Abbas. Al-Kamil*. Edited by Muhammad al-Dali. 2nd ed. Beirut: Mu'assasat al-Risalah, 1993.
- Al-Ma'arri, Abu al-'Ala'. Al-Luzumiyyat. Edited by Amin Abd al-'Aziz al-Khanji. Cairo: Maktabat al-Khanji, n.d.
- Al-Maydani, Abu al-Fadl. Majma' al-Amthal. Edited by Muhammad Muhyi al-Din Abd al-Hamid. Cairo: Matba'at al-Sunnah al-Muhammadiyah, 1955.
- Al-Anbari, Abu Bakr Muhammad ibn al-Qasim. Sharh al-Qasa'id al-Sab' al-Tiwal al-Jahiliyyat. Edited by Abd al-Salam Harun. 5th ed. Cairo: Dar al-Ma'arif, n.d.
- Al-Buhturi, Abu 'Ubadah. Diwan al-Shi'r. Edited by Hasan Kamil al-Sayrafi. 4th ed. Cairo: Dar al-Ma'arif, 2017.
- Al-Jahiz, Abu 'Uthman. Al-Hayawan. Edited by Abd al-Salam Harun. Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-'Arabi, n.d.
- Al-Qalqashandi, Abu al-'Abbas. Nihayat al-Arab fi Ma'rifat Ansab al-'Arab. Edited by Ibrahim al-Abyari. 2nd ed. Beirut: Dar al-Kitab al-Lubnani, 1980.
- Al-Amidi, Abu al-Qasim. Al-Mu'talif wa al-Mukhtalif. Edited by Abd al-Sattar Ahmad Farrag. Cairo: Dar Ihya' al-Kutub al-'Arabiyyah, 1961.
- Abu Tammam. Diwan Abi Tammam with Commentary by al-Khatib al-Tabrizi. Edited by Muhammad 'Abduh 'Azzam. 3rd ed. Cairo: Dar al-Ma'arif, n.d.
- Al-Tabari, Abu Ja'far. Jami' al-Bayan 'an Ta'wil Ay al-Qur'an. Edited by Abd Allah ibn Abd al-Muhsin al-Turki. 1st ed. Cairo: Dar Hajr, 2001.
- Al-Jahiz, Abu 'Uthman. Al-Bayan wa al-Tabyin. Edited by Abd al-Salam Harun. Beirut: Dar al-Jil, n.d.
- Al-Zanad, al-Azhar. Al-Nass wa al-Khitab. 1st ed. Sfax: Dar Muhammad Ali, 2011.
- Al-Zanad, al-Azhar. Nadhariyyat Lughawiyyah 'Arfiyyah. 1st ed. Sfax: Dar Muhammad Ali, 2010.
- Al-Asfahani. Al-Aghani. Edited by Ihsan Abbas, Ibrahim al-Sa'afin, and Bakr Abbas. Beirut: Dar Sadir, n.d.
- Al-Asma'i. Al-Asma'iyyat. Edited by Ahmad Muhammad Shakir and Abd al-Salam

Harun. 8th ed. Cairo: Dar al-Ma'arif, 2021.

- Al-Asma'i. Fuhulat al-Shu'ara'. Edited by Sh. Tori. 2nd ed. Beirut: Dar al-Kitab al-Jadid, 1980.
- Aws ibn Hajar. Diwan al-Shi'r. Edited by Muhammad Yusuf Najm. Beirut: Dar Bayrut, 1980.
- George Lakoff and Mark Johnson. Metaphors We Live By. Translated by Abd al-Majid Jahfa. 2nd ed. Casablanca: Dar Toubkal, 2009.
- George Lakoff and Mark Johnson. Philosophy in the Flesh. Translated by Abd al-Majid Jahfa. 1st ed. Beirut: Dar al-Kitab al-Jadid, 2016.
- al-Rafi'i. Tarikh Adab al-'Arab. Beirut: Dar al-Kitab al-'Arabi, 1974.
- al-Zajjaji. Amali al-Zajjaji. 1st ed. Cairo: al-Mu'assasah al-'Arabiyyah al-Hadithah, 1962.
- Sharh Naqa'id Jarir wa al-Farazdaq. Edited by Muhammad Ibrahim Hur and Walid Mahmoud Khalis. 2nd ed. Abu Dhabi: al-Majma' al-Thaqafi, 1998.
- Shawqi Dayf. Al-Ritha'. 4th ed. Cairo: Dar al-Ma'arif, n.d.
- Abd al-Rahman al-Suhayli. Al-Rawd al-Unuf. Edited by Abd al-Rahman al-Wakil. 1st ed. Cairo: Dar al-Kutub al-Islamiyyah, 1967.
- Qudamah ibn Ja'far. Naqd al-Shi'r. Edited by Kamal Mustafa. 3rd ed. Cairo: Maktabat al-Khanji, n.d.
- al-Qartajanni. Minhaj al-Bulaga' wa Siraj al-Adaba'. Edited by Muhammad al-Habib ibn al-Khuja. 3rd ed. Beirut: Dar al-Gharb al-Islami, 1986.
- al-Kalbi. Jumhurat al-Nasab. Edited by Naji Hasan. 1st ed. Beirut: 'Alam al-Kutub, 1981.
- Muhammad ibn Sallam al-Jumahi. Tabaqat Fuhul al-Shu'ara'. Reviewed by Mahmoud Muhammad Shakir. Jeddah: Dar al-Madani, n.d.
- Muhammad Kurd 'Ali. Rasa'il al-Bulaga'. 1st ed. Cairo: Dar al-Kitab al-Islami, 2009.
- al-Marzouqi. Sharh Diwan al-Hamasa. Edited by Ahmad Amin and Abd al-Salam Harun. 1st ed. Beirut: Dar al-Jil, 1991.
- al-Mufaddal al-Dabbi. Al-Mufaddaliyyat. Edited and explained by Ahmad Muhammad Shakir and Abd al-Salam Harun. 6th ed. Cairo: Dar al-Ma'arif, n.d.

Scientific Journals:

- Adel Garar. The Role of Linguistic Models in Constructing and Developing Conceptual Metaphor Theory. *Muqarabat*, no. 52 (2023).
- al-'Aqqad. Min Wahi al-Mar'ah. *Majallat al-Risalah*, no. 625 (1954).

مَجَلَّةُ الْجَمْعِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ السُّعُوتِيَّةِ لِلدِّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ

